
روايات مصرية للجيب
أسطورة
ما وراء الطبيعة
رجل بكين

مقدمة

لماذا تتحرك الظلال فى الردهة ؟

لماذا تتحرك الظلال بالذات حين تكون شيخًا فانيًا ، وحين تكون وحيدًا ، وحين تجلس ليلاً لتكتب مذكراتك على ضوء مصباح واهن ؟

لماذا تتحرك الظلال فى الردهة ، حين يكون الصراخ غير ذى نفع ، وحين يكون الجيران قد ناموا ، والليل نفسه قد نعس ، ويكون الهاتف معطلاً كالعادة ؟

لماذا تتحرك الظلال فى الردهة ، حين تكون فى غرفة مكتبك .. حيث السبيل الوحيد للخروج من الشقة هو الردهة ذاتها ؟!!

لماذا تتحرك الظلال فى الردهة ، بينما أنت ـ ببساطة ـ لا تريد ذلك ؟

كلها أسئلة بلا جواب كالعادة ..

إحـــدى الإجابات المحتمـلة أنهم قد جاءوا من أجلك .. من هم ؟ لايهمّ .. فهم كلهم يتشابهون ، ويفعلون نفس الأشياء ..

إحدى الإجابات المحتملـة أنـك قد صرت شيخًا مخرفًا ، وأن حياة الوحدة والأشباح قد أصابتك بالبارانويا ، وهى الثمرة الوحيدة الموجودة فى حديقة ذكريات من عاشوا حياتى .

إنه احتمال قوى ومريح ، ويطمئننى كثيرًا ..

دعونـا من ظـلال الردهـة ، ولنتجاهل سببها مؤقتًا .. لو أضعنا وقتنا على كل ظلّ يتحرك فى الردهة فلن نجد وقتًا كافيًا لشىء آخر ..

اليوم نلتقى و (هن ـ تشو ـ كان) الذى غاب عنا منذ الكتيب الرابع عشر(*) .. إنه هنا معنـا ،

(*) يخيل إلىّ أن مراجعة الكتيب (١١) والكتيب (١٤) ستجعل الأمور أفضل نوعًا !

ومعنا قصة كابوسية عن شىء ما وجده الأمريكيون عام ١٩٣٧ .. ومعنا الدكتور (رفعت إسماعيل) الكهل الذى يحاول ـ برغم كل شىء ـ أن يحتفظ بجسده كاملاً قطعة واحدة ..

هل أنتم جميعًا هنا ؟

هل عيونكم متسعة ، وآذانكم مرهفة ، ورءوسكم دانية منى ؟

إذن .. فلنبدأ ..

* * *

« عندما تغرب الشمس ، وتلطخ دماؤها ثوب المساء الأزرق .. عندئذ يبدأ فجر (النافاراى) »

١ ـ مهمة سرية جداً ..

السبت ٦ ديسمبر عام ١٩٤١ ..

الساعة الثامنة مساءً ..

يقف (جيمس ثورنوايلد) قائد الفرقاطة الأمريكية (إيليت) على ظهر فرقاطته ، يرمق المياه الثائرة فى قلق ..

ينظر إلى ساعته .. الثامنة ؟ كل هذا الوقت يضيع فى هراء لا أول له ولا آخر ، والمفترض أن يكونوا الآن فى قلب المحيط الهادى ، بعيداً عن هذه الأرض التى تنذر بالويل فى كل دقيقة ..

كانت التعليمات التى أعطيت له غامضة ، وهو يمقت التعليمات الغامضة بشكل خاص .. إنه يتحرك فى الظلام ، ولا يعرف بالضبط نوعية الخطر الذى

يتهدد هذه الرحلة إن كان هناك حقًا خطر ما ..
كان يعرف فقط أن الخطر يابانى ، وأن هؤلاء الـ (جابس) ـ كما يدللون اليابانيين ـ راغبون بشدة فى الشحنة التى يحملها .. لماذا ؟ هل هى من الذهب ؟ هل هى لوحات ثمينة أو قنابل أو .. ؟

لم يخبره أحد ، ولا يبدو أنهم سيخبرونه حتى بعد انتهاء المهمة ..

صاح فى (جاكسون) مساعده الأول :

ـ « هل تم كل شىء ؟ »

ـ « آى آى يا سيدى .. لقد نقلنا كل شىء إلى قاع الفرقاطة .. »

ـ « وهل الصناديق مؤمنة ؟ سنلاقى كثيرًا من الاهتزازات .. »

ـ « البحارة ينتهون من ربطها يا سيدى .. »

ـ إذن .. فلنعد أدراجنا الآن .. »

وتنهد فى ارتياح ، وأصدر أوامره برفع المرساة وتشغيل المحركات .. وبدأت الفرقاطة تستكبر بادئة رحلتها الرهيبة عبر المحيط الهادى ..

* * *

كانت الحرب العالمية الثانية فى أوج مجدها ، وكان (هتلر) عاكفًا على ابتلاع أوربا قطعة قطعة ، وقذائفه تهوى فوق يافوخ البريطانيين فى كل مكان .. لكن أمريكا لم تكن طرفًا فى هذه الحرب على الإطلاق .. حتى الآن ..

لقد انزوى العملاق الأمريكى على نفسه وراء المحيط الأطلنطى ، وسدّ أذنيه كى لا يسمع صوت القنابل والصرخات ، وكى لا يسمع (تشرشل) يصيح من (بريطانيا) : لابد أن تدخلوا الحرب ! إن دوركم آت لامحالة !

وكانت اليابان قد غزت الصين عام ١٩٣٧ ، لكن لم يحدث ما يورط الأمريكيين في الحرب ، وظلّ أسطولهم يمارس حياة هادئة نسبيًا في المحيط الهادئ ، وفي مرافئ (هاواى) و(هونولولو) الجميلة الودود ..

لم يكن (ثورنوايلد) يحب اليابانيين ولا الصينيين .. بالأحرى كان يشعر باشمئزاز منهم ، وبأن عيونهم الضيقة عيب خلقى يدلّ على الغباء ..

لكن التعليمات صدرت له بأن يدنو بفرقاطته من ساحل الصين ، عند ذلك الخليج الذى تلامس فيه حدودها حدود (منشوريا) .. وعليه أن ينتظر حتى تصل بضعة قوارب تحمل صناديق خشبية معينة .. سيكون عليه أن ينقلها إلى (هاواى) بحالة ممتازة ، وعليه ألا يفتح أى صندوق ، أو يجيب عن أية أسئلة يوجهها بحارته ..

- « أجيب ؟ » - قالها فى اشمئزاز - « أجيب

عن أى شىء بالضبط ، وأنا لا أملك أدنى تصور عن محتوى تلكم الصناديق ؟ »

لكنه خمّن أن محتوى الصناديق شىء يريد الصينيون أن يبعدوه عن يد اليابانيين .. شىء قادم من (تشوكوتيان) قرب (بكين) ..

أخيرًا - فى ضوء الغروب - رأى القوارب ، ورأى بحارتها الصينيين شديدى السقم والنحول ، والذين فتك الأفيون بصحة أكثرهم ..

وكانت الصناديق تحمل بالفعل عبارات بالصينية ، لكنه استطاع أن يقرأ اسم (تشوكوتيان) بحروف لاتينية على كل صندوق .. وكانت مغلقة بعناية ، وقد تمّ لفّها بشرائط من (الألومنيوم) مع توزيع الشمع الأحمر بعناية للتأكد من أن أحدًا لن يفتح شيئًا ..

وكما قلنا آنفًا ، انتهت عملية التحميل نحو

الثامنة مساء ، واستطاع (ثورنوايلد) أن يصدر أوامره لرجاله بالإقلاع ..

* * *

وفى الثامنة من صباح اليوم التالى هاجم اليابانيون الأسطول الأمريكى فى (بيرل هاربور) ..

إن من شاهدوا فيلم (تورا - تورا - تورا)(*) يعرفون كل تفاصيل هذا الهجوم المباغت الغادر ؛ البطولى برغم كل هذا ..

إن اليابانيين بطياريهم الانتحاريين ، وطائرات (زيرو) الشبيهة بلعب الأطفال الزنبركية ؛ قد تمكنوا فى ذلك اليوم من إغراق أربع قطع عملاقة أمريكية ، وعطلوا أربعًا غيرها ..

لقد تلقت الولايات المتحدة ضربة قاصمة لم تستطع نسيانها قط ، ويمكن القول عمليًا إن الحرب بدأت وقد فقدت أسطولها ..

(*) نمر .. نمر .. نمر .. باليابانية .

هذه قصة طويلة ، لكن ما يعنينا منها هو موقف الكابتن (ثورنوايلد) ورجاله حين سمعوا الأخبار الرهيبة فى ذلك الصباح ..

يجب أن نقول هنا إنهم لم يعرفوا شيئًا حتى الظهيرة ، وحين نجحوا فى التقاط بعض موجات الراديو .. لم يكن أحد يتحدث إليهم أو عنهم ..

من الواضح أن الصدمة أفقدت الجميع توازنهم ، ولبعض الوقت نسوا كل شىء عن الفرقاطة (إيليت) ..

كان شعور الرجال مريرًا ، وعلى شفاههم كان للهزيمة مذاق أشدّ ملوحة من مياه البحر ذاتها .. لقد فقدنا أسطولنا وخيرة بحارتنا ..

والمشكلة هى : هل نعود إلى (هاواى) أم ماذا ؟ لقد صار المحيط الهادى كله خطرًا داهمًا الآن ، والأسطول اليابانى يجول فيه بحرية كاملة .. حرية البلطجى الذى لم يعد هناك من يقف فى طريقه ..

ماذا لو قابلنا اليابانيون ؟ ماذا لو فوجئنا بسرب من طائرات (زيرو) التى يفضل طياروها الدخول بالطائرة فى قلب الهدف ، بدلاً من التصويب عليه ؟

لاجواب سوى أن نستمر فيما نفعله الآن ..

نبحر ..

* * *

كان (ثورنوايلد) منهمكًا فى تفاصيل مهمته الخطرة ..

وعندما يكون الخطر واقعيًا وملموسًا ، يغدو الاهتمام بتفاهات البحارة شيئًا مترفًا لا وقت له .. نوعًا من تبديد الطاقات فى هراء ..

مثلاً حين يتحدثون عن أصوات غريبة تنبعث من الصناديق الموجودة فى قاع الفرقاطة ..

مثلاً حين يتحدثون عن الجو المشئوم الرهيب

الذى شعر به جميع ركاب الفرقاطة ، بمن فيهم (ثورنوايلد) نفسه ..

مثلاً حين يتساءلون عن قطرات السائل الأخضر التى تتساقط من أحد الصناديق بالذات ..

حين كانوا يثرثرون فى أمور كهذه ؛ كان القائد يأمرهم بالصمت ، وبأن يكفوا عن لعب دور الدجاج المذعور .. إن اليابانيين خطر داهم حقيقى .. أما ما يتكلمون عنه فنوع من أحاديث النسوة العجائز فى القرى ..

وكان يدرك أن معنوياتهم فى الحضيض الآن .. قطعة من الأسطول المهزوم المحطّم تحاول اللحاق بزميلاتها .. لابد أن هذا الإحباط قد ألقى بذوره السامة فى مخيلاتهم .. وهو على كل حال سينفذ مهمته سواء أرادوا أو لم يريدوا .. لن يلقى الصناديق فى البحر استجابة لهؤلاء المخابيل ، وهم

لن يتمردوا طبعًا .. إنها قطعة من الأسطول الأمريكى ، وليست سفينة (كريستوفر كولومبوس) المتجهة إلى حافة العالم ..

* * *

وفى ٨ ديسمبر أعلنت الولايات المتحدة دخول الحرب ضد اليابان .. كان هذا بناءً على ضغوط من أعضاء الكونجرس على الرئيس الأمريكى ..

وكان هذا يوم سعد بالنسبة لـ (تشرشل) الذى كان يتحرق إلى أن يضمَّ ذلك الحليف القوى ، ذا الموارد البكر ، إلى صفه ..

لكن كان على الولايات المتحدة أن تفقد الكثير على رقعة شطرنج المحيط الهادئ فى البداية .. وراحت الجزر تسقط تباعًا ، والقوات الأمريكية تتراجع أمام الأقزام الصفر الذين لا يخافون الموت ..

وعند غروب شمس الثامن من ديسمبر ـ وهو

غروب مبكر طبعًا ـ هوت أولى القذائف جوار الفرقاطة (إيليت) ..

وحين تفحص (ثورنوايلد) الأفق ، استطاع أن يرى ثلاث قطع من الأسطول اليابانى تطارده بسرعة تفوق سرعته ..

ولدى انفجار القذيفة الثانية ، قرر الرجل أن الاستسلام هو الحلّ الوحيد بدلاً من تدمير سفينته وإغراق رجاله فى قتال لاجدوى منه ..

رفعوا العلم الأبيض ، وأرسلوا إشارات ضوئية تعلن استسلامهم ، وبعد قليل جاء زورقان يابانيان لنقل الرجال إلى أكبر السفن اليابانية الثلاث ..

ها هو ذا يصعد إلى سطح السفينة ، ليرى قبطانها .. يؤدى له التحية العسكرية وكذا يفعل اليابانى .. سيعرف فيما بعد أن اليابانى هو الكومندور (ميتسو جوياما) ..

قال (ثورنوايلد) لآسره اليابانى الذى كان يتكلم بعض الإنجليزية :

- « أرجو أن تُعنى برجالى .. إنهم جنود شجعان .. »

قال (ميتسو جوياما) بنبرة غليظة :

- « هؤلاء لم يعودوا رجالاً .. إنهم مجرد أسرى ! »

وهو ماسيسمعه الجنود الأمريكيون والبريطانيون مرارًا خلال هذه الحرب .. إن اليابانى يحتقر الأسرى ويراهم جبناء .. ولو كانوا أكثر شجاعة لفضلوا الموت على ذل الأسر .. الجندى الشجاع لا يؤسر أبدًا ، لكنه ينتصر أو يموت ..

ونتيجة لهذا ؛ سيدرك هؤلاء الأسرى أن معاملة اليابانيين لهم شبيهة بمعاملاتهم للحيوانات .. إن أسرى الحلفاء لدى الألمان كانت لهم حقوق ، وكانوا فى حال لا بأس بها ، أما التعساء الذين أسرهم اليابانيون فحكاياتهم تملأ الكتب ، وكلها تبعث الرجفة فى الأوصال ..

سيعرف البحارة الأمريكيون هذا وأكثر ؛ لكن هذا ليس بالضبط موضوع قصتنا .. إن ما نتكلم عنه لهو مصير الصناديق التى كانت فى قاع الفرقاطة(*) ..

للأسف ؛ كانت هذه آخر مرة تتحدث فيها كتب التاريخ عن تلك الصناديق .. لكن هناك من وجدها .. وهناك من فتحها .. وهناك من ..

فلنبق معًا .. ولنر ما سيحدث بعد قليل ..

* * *

(*) القصة التى حكيناها فى هذا الفصل حقيقية تمامًا ..

٢ ـ (طوكيو) ـ (نافاراى) ـ أشياء أخرى ..

(هن ـ تشو ـ كان) من جديد !

هذا فاصل من حياتى ومن معارفى أشك كثيرًا فى أننى عشته .. كاهن (النافاراى) القادم من (التبت) والقرن السادس عشر إلى عالمى ، ومعه مشاكل لا قبل لى بها ..

غير أننى قلما احتفظت بحب واحترام لأحد مثلما احتفظت لهذا الفتى النحيل الصموت ، الذى يملك من القوة النفسية ما يفوق عشرة رجال ، وقد سيطرت قوته النفسية على كل عضلة وكل عصب فى جسده .. ثم إنه من القلائل الذين يفعلون ثم يقولون وليس العكس .. أحيانًا يفعل ولا يقول على الإطلاق .. وهو بهذا يذكرنى بكلمات شاعرنا العربى البليغة :

. بُغاث الطير أكثرها صياحًا

ولم تصحْ البزاةُ ولا الصقورْ

ضِعاف الأُسد أكثرها زئيرًا

وأخطرها اللواتى لا تزيرْ .

و(بغاث الطير) هى الضعيف منها .. حقًا لقد كان (هن ـ تشو ـ كان) أسدًا .. وأسدًا خطيرًا لم يزأر يومًا ، وإنما يكتفى بالوثب وتمزيق ضحاياه ..

* * *

كانت تلك هى زيارتى الثانية لليابان .. ربما كان ذلك عام ١٩٧٢ أو لم يكن .. لقد اختلطت التواريخ فى ذهنى على كل حال .. كنت قد فقدت إصبعين من قدمى (معنى هذا أننى واجهت الوباء) ، لكننى لم أكن قد تلقيت قبلة (الطفيل) بعد (معنى هذا أننى لم أكن قد قابلت الطفيل) .. إذن كان هذا فى الأعوام الثلاثة الأولى من السبعينات ..

لماذا اليابان بالذات ؟ لا أذكر السبب .. ربما كان مؤتمرًا ما لتضامن الشعوب ، والحدّ من التسلح النووى .. إذن لا بد أنه كان فى السادس من أغسطس ذكرى قنبلة (هيروشيما) الشهيرة .. ودورى كان - بالطبع - ضمن الجانب الطبى للمؤتمر ، لأن القنابل الذرية تسبب سرطان الدم كما تعلم ..

كنت أقيم فى (طوكيو) .. و(طوكيو) هى العاصمة طبعًا(*)، وكان تعدادها عشرة ملايين فى ذلك الوقت .. وكان هذا كافيًا لجعلها عاصمة شديدة الازدحام .. الفكرة هنا هى أن مساحة اليابان صغيرة جدًا ..

إن (طوكيو) مدينة عجيبة متنوعة الأوجه ؛

(*) كلمة (طوكيو) معناها : عاصمة الشرق . وقد صارت العاصمة من عام ١٨٦٨ م

تارة تجدها غربية جدًا مليئة بناطحات السحب والمراكز التجارية ودور الترفيه .. يكفى أن تجوب شوارعها ليلاً لتصاب بـ (ذهول الأضواء) الشهير ؛ وتارة هى ذلك البلد التقليدى العتيق بمعابده وقصور أمرائه وبيوته المزخرفة الجميلة ..

كل شىء جميل نظيف فى اليابان ما عدا الطعام ؛ وطعامهم لا يطاق حقًا .. إنه ذلك المزيج الكريه من السمك النيئ والأعشاب البحرية التى لا تختلف عن البرسيم كثيرًا .. كل هذا غارق فى صلصة فول الصويا .. هل هناك شىء فى العالم اسمه (صلصة فول الصويا) ؟!

وعليك أن تحب هذا كله ، وأن تبتسم وتتلمظ وإلا اعتبروك قليل التهذيب ..

ما علينا .. المهم هنا هو أننى قابلت (هن - تشو - كان) شخصيًا ، وفى (طوكيو) ذاتها .. كيف؟ سأحكى كل شىء ..

* * *

لم تكن المراسلات قد انقطعت بينى وبين الفتى ، خاصة فى الأعوام الأخيرة ..

كان يتطور باستمرار ، وصار ينتمى لهذا العصر بقوة ، كما أن إنجليزيته صارت على ما يُرام .. بل وصينيته أيضًا ؛ فهو - كما تعرفون - كان قد قرر الإقامة فى الصين دائمًا .. إنه ليس صينيًا ، ومازال يعتبر الصينيين أولئك الغزاة الذين احتلوا (التبت) - وطنه - وغيروا عاداته وتقاليده ، وأرغموا (الدلاى لاما) على الهرب إلى الهند .. لكن الزمن يتغير ، وقد صار من المحال أن يعود (التبت) كما كان .. لهذا اندمج مع الصينيين ، وبشكل لا أفهمه استطاع الحصول على الجنسية الصينية ..

وكانت آخر أخباره هى انضمامه لفريق من علماء الحفريات فى (منشوريا) فى الشمال الشرقى للصين .. إن ما قام به (هن - تشو - كان) فى حملة رجل الجليد قد رفعت من أسهمه لدى

الصينيين .. ولأسباب عديدة وجدوا أنه مناسب للمشاركة فى الحملات فى البقاع النائية البكر ، وما أكثر البقاع النائية البكر فى الصين !

بعد هذا قال لى إنه ذاهب إلى اليابان فى مهمة معينة لها طابع دراسى ؛ ولم أفهم لكنى أخبرته أننى سأكون فى (طوكيو) فى (أغسطس) القادم .. قال إنه سيحاول الاتصال بى ..

ونسيت كل شىء عن الموضوع كالعادة ، حتى فوجئت بمن يتصل بى فى فندق (دايتشى) بحىّ (آساكا) ؛ وهو فندق فاخر له طابع غربى ، كنت أقيم به على حساب المؤتمر طبعًا ..

وكان يتحدث خليطًا من الإنجليزية والعربية التى صار يعرفها جيدًا كما يعلم القارئ ..

- « وكيف عرفت أننى هنا بالذات ؟ »

قال بطريقته المقتضبة العزوف عن التفاخر :

ـ « سكرتارية المؤتمر .. قالوا لى إن البروفسور (إسماعيل) فى فندق (دايتشى) .. »

ودون المزيد من التحيات وعبارات المجاملة ؛ قال :

ـ « هناك مطعم اسمه (سويهرو) قرب الفندق .. هل تعرفه ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « إذن فلنلتق هناك بعد ساعة .. »

ولهذا تجدوننى جالسًا على ركبتىّ فى هذا المطعم ، حافى القدمين طبعًا ، أشرب الشاى المُرّ من سلطانية خزفية صغيرة .. تجلس أمامى مضيفتان يابانيتان ترتديان (الكيمونو) وتنتظران أوامرى .. لست من هؤلاء الذين يجدون راحتهم أو يستطيعون أن يأكلوا بينما هناك من يراقبهم .. إن الطعام ينزل بالسمّ فى جوفى وقتها ، لكنها التقاليد اليابانية التى لا تتزحزح ..

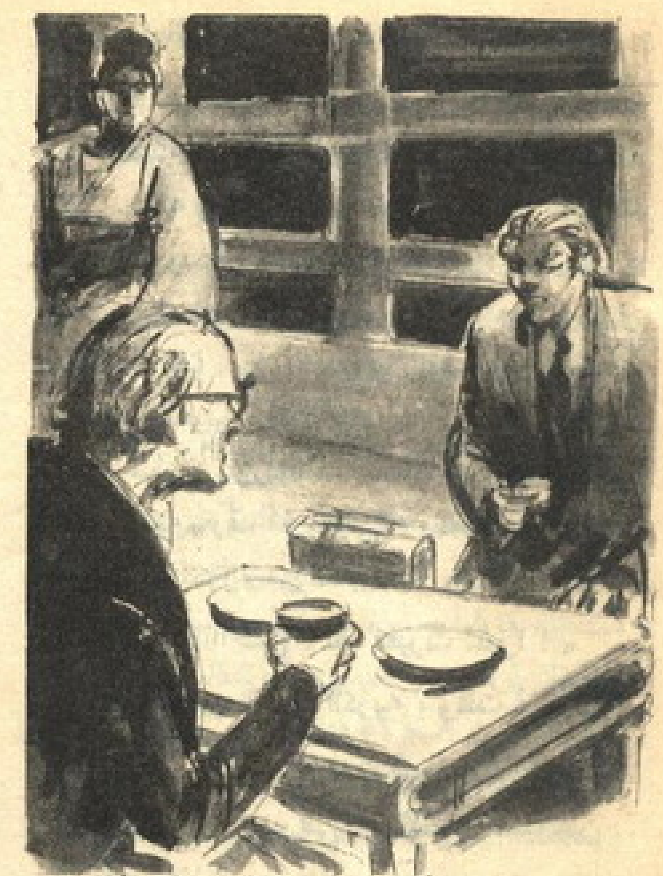
أخيرًا جاء (هن ـ تشو ـ كان) فى موعده ..

كان قد تغيّر كثيرًا .. من العسير أن تحسبه كاهنًا من (التبت) من القرن السادس عشر لو طلبت رأيى .. إنه يرتدى بذلة أنيقة ويضع عوينات بلا إطار ، ويحمل حقيبة أوراق صغيرة .. كل شىء يوحى برجل أعمال من (هونج كونج) جاء ليجرى صفقة ما هنا .. إن الآسيويين يتشابهون بالنسبة لنا معشر العرب ، لكن أؤكد لك أن منظر (هن ـ تشو ـ كان) كان يختلف تمامًا عن كل يابانى هنا .. الجميع يعرف أنه صينى .. مثلما تميز عيونهم الفيتنامى من الكورى من الكمبودى .. ولا أدرى كيف ..

ـ « (ريفاااا ت) ! لقد تغيرت كثيرًا ! »

رشفت بعض الشاى الكريه ، وقلت فى ملل :

ـ « نعم .. نعم .. ازددتُ قبحًا وشيخوخة .. هذا ما يقوله كل من يرانى بعد انقطاع أسبوعين .. ماذا تفعل هنا ؟ »



كان قد تغيّر كثيراً .. من العسير أن تحسبه كاهناً من (التبت) من القرن السادس عشر لو طلبت رأيى ..

ـ « إنه (البيزنس) .. ثمة أمور كلفتنى إياها الحكومة الصينية .. »

وجاء النادل فوضع أمامنا عشرات الأكواب الملأى بالسوائل الحمراء والخضراء والزرقاء ، والأرز المعجون ، والسمك النيئ .. ثم أعطوا كلاً منا عصوين على سبيل التعذيب ..

قال (هن ـ تشو ـ كان) وهو يتناول أحد الأكواب الحمراء :

ـ « حساء أم الخلول ! هذا يوم سعد ! »

ـ « حساء أم الخـ .. ؟! »

وتقلصت أحشائى ، كعادتى منذ جئت إلى اليابان ..

وهكذا رحت أصغى إليه وهو يتكلم ـ بندرة كعادته ـ ويحكى لى أحداث حياته فى الأعوام السابقة ..

لم يكن هناك الكثير ـ كما قلنا ـ لقد عاش صموتًا منعزلاً نائيًا عن الحياة الاجتماعية .. مارس تمارينات (النافاراى) بانتظام ، وقرأ كثيرًا فى كتاب (شوكارا) ، وارتحل إلى (التبت) مرتين أو ثلاثًا بحثًا عن مزيد من آثار (النافاراى) ..

طبعًا لم أمس من طعامى إلا بعض الأعواد الخضراء ؛ أما هو فأكل بشهية من لم يذق حساء أم الخلول من قبل ..

لاحظت إحدى الفتاتين أننى لن أمس طعامى كما هو واضح ، فقدمت لى منشفة مبتلة كى أمسح أناملى ، ثم انحنت والتمعت أسنانها ، وتراجعت إلى الوراء على ركبتيها .. ذكرونى أن أجد زوجة يابانية لو اتسع الوقت ، فمن الواضح أنهن زوجات مثاليات ..

ساد الصمت قليلاً ، ثم تباطأت سرعة (هن ـ

تشو ـ كان) فى المضغ .. أدركت أنه يفكر فى عمق ..

قال لى وهو يفتش عن شىء فى جيب سترته :

ـ « (ريفاالت) أنا مسرور للغاية لكونى قابلتك .. وأين ؟ فى هذا الركن من العالم .. كنت بحاجة إلى من أثق به كما تعلم .. »

ـ « أفهم .. أفهم .. »

أخرج مظروفًا كبيرًا مغلقًا بإحكام ، وقال لى :

ـ « خذ هذا ولا تفتحه .. لاتفتحه إلا إذا لم أتصل بك خلال أسبوع .. أنا أعرف أنك مؤتمن .. »

والحقيقة ليست كونى مؤتمنًا .. بل كونى غير مهتم على الإطلاق بأسرار هذا الفتى .. لو شاء أن يقولها فليقلها ، لكنى لن أجهد ذهنى لحظة واحدة فى التنقيب عنها ..

ـ « هل هو أمر خطير ؟ »

ـ « ربما نعم .. وربما لا .. ستعرف كل شىء خلال أسبوع .. »

ونظر حوله فى حذر ، وواصل التهام السمك النيئ بعصوبيه ..

سألته فى حذر مماثل :

ـ « إلى أين أنت ذاهب بالضبط ؟ »

ـ « إلى أحد معابد (الشنتو) فى ضواحى المدينة(*) .. ثمة شىء أبحث عنه ، فلو وجدته لانتهى الأمر .. لكنى آمل ألا أجده .. »

ثم بحث عن تعبير مناسب لثقافته (التبتية) فقال :

(*) (الشنتو) هى الديانة التقليدية فى اليابان .. ديانة عبادة الشمس وتقديس الإمبراطور .. إلخ .. فيما بعد دخلت البوذية ، وصار لكل يابانى دينان معًا !

ـ « أن يتسلل النمر إلى دارك هذا خطر .. لكن عثورك عليه لن يقلل الخطر ! »

حاولت فهم هذا التعبير الشعرى فلم أستطع .. سألته :

ـ « هل أنت ذاهب للبحث عن نمر فى ذلك المعبد ؟ »

ـ « ربما .. لكنى لا آمل أن أجده ! »

وأشار للفتاة فهرعت إليه بالمنشفة المبللة إياها .. جفف شفتيه ثم نهض قائلاً :

ـ « وداعًا أيها الصديق .. سأتصل بك ، وإلا فلا تنس المظروف الذى معك .. »

وخرج من المطعم باحثًا عن حذائه ..

* * *

٣ ـ ذيل النمر ..

طبعًا مرّ الأسبوع ولم يتصل بى (هن ـ تشو ـ كان) ..

ظننت هذا مفهومًا للقارئ ، وإلا ما وجدت القصة أصلاً ..

وهكذا جاء اليوم الذى بحثت فيه فى جيب سترتى حتى وجدت المظروف إياه ، وقررت أن أفتحه .. لست ـ كما قلت ـ مهتمًا بالأمر ، لكنى أحب أن أبرّ بوعودى .. هذه من مزاياى القليلة ، أو لعلها ميزتى الوحيدة اليتيمة ..

* * *

كان الخطاب بإنجليزية رديئة جدًا ، كالتى

تقرؤها اليوم فى نشرات الأجهزة الإليكترونية المصنوعة فى الصين .. يقول الكاهن الأخير :

ـ « عزيزى (رفعت) :

« آسف لإقحامك فى هذا كله ، وأنا أعرف أنك ضقت ذرعًا بمشاكلى ؛ لكنى لا أعرف شخصًا آخر أهلاً للثقة فى (هونشو) (*) ..

« حين تقرأ هذا الخطاب ، سأكون غالبًا فى خطر داهم .. عليك أن تستقل سيارة أجرة إلى العنوان التالى (....) وتسأل عن (تاكيجى ـ سان) .. لو قابلته إحك له قصتى ، وإن لم تجده عليك أن تكتب القصة كلها وترسلها إلى (...) ..

« ليست المهمة شاقة كما ترى ، وبعدها يمكنك أن تواصل الاستمتاع بسياحتك هنا .

بإخلاص : هن ـ تشو »

(*) تقع (طوكيو) فى جزيرة (هونشو) ؛ وهذه الجزيرة تضمّ أهم المدن اليابانية عامة ..

كان الخطاب غامضًا ، وله ذلك الطابع التآمرى الذى يذكرنى بقصص التجسس .. ترى ما الذى يحاول الفتى أن يورطنى فيه بالضبط ؟ ما دخلى أنا بعلاقات الصينيين واليابانيين المتشابكة المليئة بالشك وسوء النية ؟ إن الكراهية بين الشعبين عميقة الجذور منذ بدايات هذا القرن ، وقد ازدادت سوءًا بعد الحرب العالمية الأخيرة ..

ترى ما الذى تفعله بالضبط يا (هن ـ تشو ـ كان) ؟

* * *

ولكن لم تكن لى حيلة ما ..

فى الثامنة مساءً ركبت سيارة أجرة ، وبصعوبة بالغة نجحت فى أن أشرح للسائق وجهتى .. إنهم لايقبلون الكلام بالإنجليزية ويتظاهرون بعدم الفهم ، ثم إن نطقهم للحروف يختلف عن نطقنا تمامًا ، أضف لهذا أن شوارع (طوكيو) بلا اسم ! نعم ..

لقد ظلت هكذا طويلاً حتى جاء الأمريكيون وأطلقوا عليها أرقامًا .. لكن اليابانيين ظلوا يسمون الشوارع بأسماء على غرار (الشارع الذى فى أوله المطعم وآخره المعبد) .. وهى ـ كما ترى ـ ليست بالطريقة المثلى التى تنقذ السائح من الضياع !

أخيرًا وجدت العنوان المقصود ..

كان بيتًا يابانيًا تقليديًا من طابق واحد ، على بابه فانوس جميل مزخرف يغمر المدخل بألوان لا بأس بها .. الجدران خشبية كالعادة ، وذلك الطابع العام من (الهشاشة) الجديرة بشعب اعتاد الزلازل وصارت جزءًا من حياته ..

دققت الجرس ففتحت لى الباب عجوز مجعدة يبدو أنها شبه كفيفة كذلك ، فقلت ضاغطًا على مقاطع كلماتى :

ـ « (تاكيجى ـ سان) ! »

أفسحت لى المجال كى أدخل ، فنزعت حذائى ، ودسست قدمىّ فى قبقاب زلق موضوع هناك ، ودخلت إلى غرفة صغيرة لها جدران من الورق المزخرف .. وكان هناك موقد صغير مما يعمل بالفحم ـ يسمونه (هيباشى) ـ وضع عليه براد شاى ، وثمة منضدة صغيرة على الأرض فوق حصيرة .. ركعت على ركبتىّ وجلست أنتظر فى جو صامت مريب ..

لو كان هذا فيلمًا سينمائيًا فلسوف يبرز لى الآن عشرة من لاعبى الكاراتيه المحترفين ، ويعطوننى علقة لم أر مثلها قط .. لحسن الحظ أن هذا ليس فيلمًا سينمائيًا .. أو لتدعُ الله (تعالى) ألايكون كذلك ..

بعد دقائق برز لى (تاكيجى ـ سان) ..

كان يابانيًا كما اعتدنا أن نتخيل اليابانيين حقًا ..

قصير القامة .. أصفر اللون .. هزيلاً .. له أسنان أرنب تبرز من فوق شفته السفلى ، وعوينات غليظة توحى بالبلاهة ، وكان ينحنى فى تملق ويقهقه دون داع .. وكان يرتدى ثيابًا غربية أنيقة إلى حدّ ما ..

قلت له بالإنجليزية داعيًا الله أن يفهمها :

ـ « أنا صديق لـ (هن ـ تشو ـ كان) .. »

هزّ رأسه فى ذكاء ، والتمعت أسنانه :

ـ « آه آه ! سودسكا ! »

وهو ما يساوى عندنا قولك (هكذا إذن ؟)

قلت له :

ـ « قال لى إن علىّ الاتصال بك لو انقطعت أخباره أكثر من أسبوع .. »

ازدادت ابتسامته إشراقًا :

ـ « آه آه ! سودسكا ! »

ـ «قال إن عليّ لو وجدتك أن أنقل لك هذه القصة .. والحق أننى لا أدرى ما هى بالضبط .. »

ـ « آه آه ! سودسكا ! هاها ! »

ـ « لا أعرف سوى أنه كان ذاهبًا فى مهمة فى معبد ما .. كان يبحث عن نمر يأمل ألا يجده »

ـ « آه ! سودسكا ! »

أخيرًا تكلم بعد ما بدأت أتساءل عن كونه يجيد الإنجليزية ، أو يجيد الكلام أساسًا ..

قال بصوت غليظ خارج من معدته :

ـ « الواقع يا سيد .. »

ـ « (رفعت إسماعيل) .. »

ـ « الواقع يا سيد (إسماعيل) أن لدى (هن ـ تشو ـ كان) سان من الأسباب ما يجعله لا يرغب

فى أن يُشاهد معى ، أو يُعرف أنه جاء دارى .. دعك من أنه يخشى أن يكون هاتفى مراقبًا .. إنه يبالغ طبعًا لأنه لا هاتف لدىّ أصلاً .. لهذا أشكرك على هذه الرسالة ، ولسوف يكون من دواعى سرورى البالغة أن تشرف شخصى المتواضع بزيارة ثانية فى مثل هذا الموعد غدًا .. ثمة بعض أشياء أرغب فى أن أعطيك إياها .. »

وصبّ لى بعض الشاى الأخضر المرّ فى شيء يشبه المبصقة ، وناولنى إياه كما قدم لى طبقًا مليئًا بـ (الكاجو) ..

قلت له وأنا أمضغ وأتلمظ :

ـ « الحقيقة هى أننى لا أعرف على الإطلاق ما يدور هنا ، وكنت أفضل لو تركتمونى وشأنى إن لم يكن فى هذا ضرر بالغ لأحد .. »

اتسعت ابتسامته أكثر فأكثر ، والتمعت نظرة

قاسية من وراء زجاج العوينات الغليظ وهو يقول :

ـ « للأسف يا سيّدى .. إن الإمساك بذيل النمر قد يكون سهلاً ، لكن تركه مسألة أخرى ! »

يا للنمور ! منذ جئت إلى اليابان وأنا لا أسمع إلا عن النمور .. لكن هذا المثل صينى على كل حال ، ومعناه قريب من (دخول الحمام ليس كالخروج منه) ..

كنت أقول له إننى غير ملتزم بشىء ، لكنى أحجمت .. إن لى التزامى نحو (هن ـ تشو ـ كان) على كل حال .. وهو قالها : لو لم يتصل خلال أسبوع فهو فى مأزق وأنا لن أترك صديقًا فى مأزق ..

وهكذا غادرت البيت مبلبل الأفكار .. كانت الأمطار تنهمر فى خفة باعثة نوعًا من البرد المحبب فى أوصالك .. وقررت أن أمشى قليلاً قبل أن أستوقف سيارة أجرة .. أنا بحاجة إلى ترتيب أفكارى ..

هواء الليل المنعش المغسول .. أمطار فى أغسطس ؟ لن أفهم جوّ هذه الجزر أبدًا .. (هن ـ تشو ـ كان) فى مأزق .. الحلّ فى يد (تاكيجى) أو ـ على الأقل ـ يجب أن يعرف .. (تاكيجى) يريد إعطائى أشياء معينة فما هى ؟

يا لها من ألغاز ! لكنى سأفعل ما يُطلب منى على كل حال .. لن أكثر من الأسئلة ولكنى ببساطة سألعب دور الساعى .. الساعى الذى لا يسأل كثيرًا ..

* * *

ذيل النمر فى يدى .. فكيف أتركه ؟

* * *

فى الثامنة من مساء اليوم التالى ، وبعد ما امتلأ رأسى بثرثرة المؤتمر حتى صارت أية حركة لى تسكب الحروف من أذنى ؛ نزلت من سيارة الأجرة ونقدت السائق الانتحارى أجره ..

كان عجوزًا ، ومن المؤكد أنه ـ ككل سائقى التاكسى في (طوكيو) ـ كان من (الكاميكازى) .. أولئك الانتحاريين الذين كانوا يركبون الطوربيد ويندفعون به نحو المدمرات الأمريكية .. كل هؤلاء صاروا بعد الحرب سائقى تاكسى ، لكنهم لم يتخلوا عن عادة قتل الزبائن ..

وقفت على الباب وقرعت الجرس ..

لا إجابة .. لم تأت العجوز بعد .. قرعت من جديد بلا جدوى ..

الباب مفتوح .. هل أدخل ؟

طبعًا دخلت .. وفى هذه المرة فعلتها بحذائى .. لأننى شعرت بأننى بحاجة إلى خفة الحركة لسبب لا أدريه ..

كانت المنضدة إياها والموقد إياه ، والحصيرة .. كل هذه الأشياء كانت موجودة .. لكن الجدران

الورقية كانت ممزقة فى أكثر من موضع ؛ وكانت هناك آثار فوضى لا بأس بها أبدًا ..

غريب هذا !

أقسم إن هذا المكان شهد معركة عنيفة نوعًا ..

واصلت البحث ، وبصوت متردد ناديت :

ـ « (تاكيجى ـ سان) »

لم يكن من ردّ ..

وبدأ قلبى يخفق متسارعًا .. ثمة شىء ما على غير ما يرام .. شىء ما خطأ ..

وأخيرًا وجدته .. كان راقدًا على ظهره ، وقد سقطت العوينات مهشمة على بعد سنتيمترات منه .. كان ميتًا طبعًا .. عرفت هذا من عينيه المحملقتين الخاليتين من التعبير ومن الجرح البليغ فى عنقه ..



وأخيراً وجدته .. كان راقداً على ظهره ، وقد سقطت العوينات مهشمة على بعد سنتيمترات منه ..

نحن فى اليابان بلد (الساموراى) و(النينجا) و (الرونيسن) .. فمن سمع عن شخص يُقتل بطريقة أخرى غير السيف ؟!

وعلى بعد أمتار وجدت العجوز ، ولم تكن أفضل حالاً ..

هذا كمين .. بالتأكيد هو كمين ..

وقد دخلت المصيدة بحماقتى المعتادة ..



٤ـ كمين ..

أين أقراص (النيتروجلسرين) ؟

إن قلبى موشك على ..

* * *

أخيرًا بدأ الألم يزول من صدرى ، وبدأ الصداع والدوار يغزوان رأسى ، وهما هدية (النيتروجلسرين) لمن يدسه تحت لسانه ، أو قل إنهما ضريبة النجاة من آلام الذبحة ..

يجب أن أخرج من هنا حالاً .. يجب ..

وغادرت الدار مسرعًا ، ومن بعيد لمحت ضوء سيارة أجرة فأشرت لها ، ووثبت داخلها قبل أن تتوقف تمامًا .. قلت للسائق شيئًا عن حىّ (آساكا) ونظرت للوراء ..

حقًا لم أخطئ كثيرًا بالإسراع .. هناك خيال (سلويت) ثلاثة أشخاص يقفون فى ضوء الدار ، ويبدو أنهم كانوا يحاولون اللحاق بى لولا ظهور سيارة الأجرة من حيث لم يحتسبوا ..

هل هم المكلفون بذبحى أم المكلفون باتهامى بذبح (تاكيجى) والعجوز ؟!

بالطبع .. الأمور دائمًا هكذا وليس تخيل الأمر عسيرًا ..

أنا لا أعرف بالتأكيد ما يدور من حولى ، وهكذا فإن هناك احتمالين لا أكثر : محاولة قتلى أو محاولة توريطى ..

ولماذا ؟ لأننى أعرف أكثر مما يجب ، أو لأن ماكان (تاكيجى) سيعطيه لى شديد الأهمية أكثر مما يجب ..

لقد صارت هذه الأمور محفوظة من السينما ، ولم يعد شىء قادرًا على إثارة دهشتى ..

* * *

دخلت غرفتى فى الفندق ، فنزعت ثيابى ورقدت على الفراش ، وفتحت جهاز التلفزيون .. كانت مذيعة حسناء تتحدث عن شىء ما ، ومن فمها تخرج مئات النقوش بالحبر الشينى ؛ لكنى لم أكن معها .. وبالطبع لو ركزت لما فهمت شيئًا ..

يجب أن أغادر اليابان سريعًا ..

لا أعرف إن كان هناك من يلاحقنى أم لا .. إن كان هناك من يعرفنى أم لا .. لكن الجو كله مريب ينذر بالخطر ، وروائح الفئران تفعم كل شىء كما يقول الإنجليز ..

إن (هن - تشو - كان) لم يتصل بى ، ومن الواضح أنه لن يفعل .. أفهم ما حدث ؟ ولماذا أفهمه ؟ كم من الأسرار تملأ الحياة بدءًا من

أهرام الجيزة وانتهاء بمقتل (كنيدى) .. ما الذى سيضيفه لغز جديد ؟ لن تغدو الحياة أكثر تعقيدًا ..

لم ينته المؤتمر بعد ، لكنى على كل حال ألقيت كلمتى القصيرة فيه ، فلم يعد أحد يطالبنى بشىء آخر ..

وهكذا بدأت حزم حقائبى ، ثم طلبت مكتب الاستقبال فى الفندق وأخبرت الموظف أننى أعتزم الرحيل غدًا .. فليجد لى تذكرة على أول طائرة ترحل غدًا ..

إننى أمقت أجواء العصابات والمؤامرات هذه .. لقد اعتدت أن يجىء الخطر من عالم آخر .. عالم ليست له مقاييسنا المادية .. عالم يمتصّ أفراده الدماء ، أو يجولون بين المقابر ليلاً ، أو يخترقون الجدران .. هذا هو الخطر الذى أشعر بالراحة معه ، وربما بعض الحنين .. لكن أساليب

الصفات هذه لا تتلبسنى حتمًا .. وإننى لواجد فيها بعض السوقية والابتذال ..

هنا دق جرس الهاتف ..

* * *

ـ « من ؟ »

ـ « د. (إسماعيل) .. أرجو أن تمنحنى ساعة من وقتك .. »

كان هذا صوتًا رخيمًا ثابتًا .. يتحدث بإنجليزية يابانية الطابع لا شك فيها .. سألته :

ـ « من أنت ؟ »

ـ « الأسماء لا تهم .. لو قلت إننى (ياماتو) أو (ساكامورا) فما جدوى ذلك لك ؟ »

كلام سليم منطقى .. وأنا أحب الأوغاد المنطقيين ..

قال لى :

ـ « هل يمكنك التواجد فى شارع (جانزا) بعد نصف ساعة ؟ يوجد محل عاديات شهير باسم (ساكورا) هناك .. ألقاك على الباب ..

ـ « هذا مغر .. لكنك لم تعطنى سببًا واحدًا يجعلنى أجن شوقًا كى ألقاك هناك .. »

ـ « إن الأمر يتعلق بصديقك الصينى .. وبشىء وجدته عند من يدعى (تاكيجى) .. هل صار كلامى ذا معنى لك ؟! »

ـ « سأراك هناك »

ووضعت السماعة شاعرًا بالسخط .. طبعًا سأذهب .. من أنا كى لا أفعل ؟

لقد عرف الوغد كيف يثير حماسى الذى حسبته لا يُثار ..

وهكذا ـ بعد ثلاثين دقيقة بالتمام ـ كنت أخترق

الزحام فى شارع (جانزا) ، وأقاوم ذهول الأضواء المفرطة .. ذلك الذهول الذى يعانيه كل قصار النظر ، ويمكن فهم ما أعنيه لو عرفت أن شارع (جانزا) هو الشارع التجارى الأهمّ فى (طوكيو) .. مثله مثل شوارع (سليمان باشا) و (٢٦ يوليو) عندنا فى القاهرة ..

كان هناك محل (ساكورا) إياه ، وقد كتب اسمه بحروف مضيئة لا تكف عن التوهج .. الحق أنه من العسير أن تخطئه ..

وقفت على الباب منتظرًا العميل ذا الزهرة الحمراء ، أو الذى يحمل رغيفًا عملاقًا على عادة القصص .. أنا لا أعرفه لكن من الواضح أنه يعرفنى جيدًا ..

ولم يطل انتظارى كثيرًا ، لأننى وجدته يدنو منى ..

كان ضخمًا فى منتصف العمر ، بدأ يفقد الشعر فى مقدمة رأسه ، ويرتدى قميصًا مشجرًا لا يناسبه ..

حيّاتى فى تهذيب بهزّة رأس ، ثم قال :

ـ « د . (إسماعيل) .. أعتقد أننا سنكون أكثر راحة لو ابتعدنا عن هذا الزحام .. »

ودون كلمة أخرى راح يشقّ طريقه وسط الناس ، عالمًا أننى بالتأكيد أمشى خلفه .. كان حجمه كافيًا لإحداث فجوة فى الجماهير .. فجوة سمحت لشخص فى حجمى بأن يتسرب منها ..

كان مشوارًا طويلاً بحق ، عبر عشرات الممرات الجانبية ، والأزقة الأنيقة ، التى أدعوها أزقة لاتساعها فقط لا لقذارتها ..

أخيرًا ها نحن ذان نقف فى تلك الزقاق المظلم الخالى من البشر .. حيث تتصارع قطتان على صندوق قمامة ..

قلت له لاهثًا بعد كل هذا المشى الذى لم أعتده :

ـ « والآن .. أعتقد أننى سأفهم شيئًا أو شيئين .. »

نظر لى .. وهذه المرة كان يضحك .. يضحك فى صمت لكنها ضحكة وحشية لم أسترح لها كثيرًا .. إن الضوء الخافت يسبغ على ملامحه شيطانية لامراء فيها ..

قال شيئًا ما باليابانية .. لم أفهمه طبعًا ، لكنه كان يحمل لى رسالة بليغة جدًا : إننا لسنا وحدنا فى هذا الزقاق ..

ونظرت حولى .. بالذات للوراء .. فوجدت ..

كان هناك بلطجيان يابانيان .. بلطجيان من الطراز الذى لا تصدق وجوده ما لم تره .. وكان كلاهما يحمل خنجرًا براقًا أشبه بسونكى البندقية ، ويتجه نحوى فى تؤدة ..

المقلق فى الموضوع هو أنه لم يكن فى الجو ما يوحى بالتهديد ! هؤلاء القوم لا يريدون شيئًا منى .. لا يريدون سوى قتلى !

صحت وأنا أتراجع للوراء :

ـ « لحظة ! ألن تسألنى عن معلومات ما ؟ »

ابتسم اليابانى الأول فى مرارة ، وهزّ رأسه نافيًا .. فتساءلت :

ـ « .. هل تريدون سرقتى ؟ إن معى بعض المال الذى .. »

هز رأسه من جديد نافيًا ، وأشار للرجلين بمعنى : فلننته سريعًا من هذا كله .. وتراجع للوراء كى لا يلوث ثيابه ..

وتذكرت ذلك المشهد الخالد من فيلم (الإصبع الذهبى) .. أنا أكره أفلام (بوند) لكن هذا المشهد لا يُنسى بسهولة .. (بوند) مقيد وشعاع الليزر يوشك على تمزيق جسده إلى نصفين .. يصيح (بوند) فى الإصبع الذهبى : « لحظة ! سأتكلم ! ألست تتوقع منى أن أتكلم ؟ » هنا يقول الإصبع

الذهبى فى ملل : « بالعكس يا مستر (بوند) .. أتوقع منك أن تموت ! »

هنا ـ بينما أقرب البلطجيين إلىّ يحرك خنجره فى الهواء ـ سمعت صوتًا محببًا للنفس ..

* * *

من أين جاء (هن ـ تشو ـ كان) ؟

من أين ظهر بينى وبين الرجلين ؟

لا أدرى ولا يهمنى أن أدرى .. كل ما يهمنى هو أننى نجوت .. بالتأكيد نجوت .. ومن جديد أسمع الإنذار الخالد الذى لم أسمعه من دهر ..

ـ « تشاساراياتا ! »

قالها وهو يباعد ما بين ساقيه ..

ـ « جوانغ ساراياتا ! »

قالها وهو يفتح ذراعيه المشدودتين المتوترتين ، ويباعد أنامله كالمروحة ..

يتبادل البلطجيان النظرات أمام عرض الحواة هذا .. غير عالمين أن هذه آخر فرصة لهما للنجاة لو أرادا الحياة .. لكن كل الثيران غبية كالعادة .. يلوحان بالخنجرين ويتقدمان أكثر ..

هنا ينتقل (هن ـ تشو ـ كان) إلى التحذير الثالث والأخير :

ـ « كيوه ساراياتا ! »

يقولها وهو يرجع رأسه للوراء كسهم فى قوس ..

مشكلة هؤلاء الحمقى هى أنهم يجهلون لغة رهبان (التبت) القديمة ، ويجهلون أن الكاهن الأخير أنذرهم (احترسوا من الساراياتا ـ سأبدأ الساراياتا ـ إليكم بالساراياتا) .. وبعدها انطلق ..

انطلق كالفهد الذى يمزق مجموعة من الأطفـال ، أو القط الذى وجد نفسه فى جحر فئران .. أو ...

لن أصـف المشـهد لأنـه تمَ بسرعـة على كـل حال ، وعلى العموم أنا قد كففت عن الانبهار بالمعارك التى يهزم فيها الكاهن الأخير أقـل مـن عشرة أشخاص ..

فى النهاية رقد الأوغاد الثلاثة ينزفون ، وسعيد الحظ فيهم يئن .. هنا يصيح الفتى صيحته التقليدية :

ـ « سوان هاتشاه سارايانا ! »

ثم يجذبنى من يدى لنبتعد عن هذه المذبحة ..

* * *

وفى غرفة الفندق رحت أنظف له جراحه ..

لم تكن جراح هذه المعركة طبعًا ، لكنها جراح معركة سابقة لهذا .. جراح قطعية على خده وأعلى صدره وفى ساعده الأيسر ..

كان مُرهقًا لكنه متحفز كالنمر ، نشط كبعوضة .. أخيرًا سألته وأنا أجلس على حافة الفراش :

ـ « أعتقد أن بعض التفسيرات من حقى .. »

قال وهو يرتدى قميصه :

ـ « أية تفسيرات ؟ الأمور واضحة تمامًا .. »

ـ « ياسلام ؟! جثتان فى دار يابانية ، وقتلة يحاولون ذبحى ، وأنت جريح .. و .. إن الوضوح يكاد يخنقنى .. »

شاعت ابتسامة فى تقاطيع وجهه الصلب ، وهى شىء نادر لدى (هن ـ تشو ـ كان) خاصة وهو لا يفهم الدعابات أصلاً .. إن الصينيين دائمو القهقهة لكن بالنسبة لهذا الفتى كان أقصى مرح ممكن هو رفع الحاجبين ..

قال وهو يزرّر كميه :

- « أنت على حق .. لابد من بعض الإيضاحات .. »

- « إن الأمر يتعلق بـ .. »

وأزاح الستار ليرى ما وراءه ، وأردف :

- « شىء شديد الأهمية .. شديد الأهمية لـ ... »

وجثا على ركبتيه ليتفحص ما تحت الفراش ..

- « .. للصينيين .. إن مهمتى فى الحقيقة نوع من عمليات المخابرات .. و .. »

وتفحص المصباح جوار فراشى ، ثم رفع يده فى الهواء لأرى ما يحمله ..

كان جهازًا صغيرًا لم يصعب أن أعرف ما هو ..

إنه ميكروفون دقيق مدسوس هناك بغرض الانتصات طبعًا ..

قال وهو يضع الشىء على المنضدة :

- « ربما كان من الخير أن نواصل كلامنا فى الهواء الطلق .. »

* * *

٥ ـ أسطورة رجل بكين ..

« جهاز تنصت ؟ وخبئوه فى المصباح ؟ ألن يخترعوا أبدًا مكانًا خيرًا من هذا ؟ دائمًا نفس المكان .. »

ـ « لا تنس أنك لست رجل مخابرات ، ولا تتوقع وجود شىء كهذا .. لو أردت رأيى لقلت إن هذا المكان صالح تمامًا لمن لا يتوقع شرًا .. »

كنا نجول فى حديقة صغيرة من الحدائق المحيطة بـ (طوكيو) ، ولم يكن هناك ما يريب .. المكان خال تمامًا لكن أضواء المصابيح لا تترك ركنًا مظلمًا فيه ..

قال (هن ـ تشو ـ كان) وهو يواصل المشى :

ـ « هل تعرف شيئًا عن رجل بكين ؟ »

ـ « لا أعرف .. أعتقد أنه ذو أهمية أنثروبولوجية ما ؛ مثله مثل إنسان (نياندرثال) وسواه .. (هومو سابينز) و (هومو إيريكتاس) وكل هذه المصطلحات .. »

قال وهو ينظر حوله فى حذر :

ـ « فى القرن الماضى كانت أسنان التنين تلاقى رواجًا هائلاً فى الصين .. إن العطارين يبيعونها مطحونة لشفاء أكثر الأمراض .. طبعًا كانوا يزعمون أنها أسنان تنين ، لكن الحقيقة أنها كانت أجزاء من عظام يجدونها متناثرة هنا وهناك ، ولم يحاولوا قط أن يعرفوا مصدرها ..

« فى العام ١٩٢٠ يجىء الجيولوجى السويدى (أندرسون) إلى الصين .. إلى (بكين) بالذات بحثًا عن ثروات معدنية ..

« بدأ العمل فى موضع اسمه (تشوكوتيان) قرب (بكين) ، وقد وجد كثيرًا من هذه الأسنان التى بدت له مختلفة عن أية أسنان يعرفها .. لكنه لم يكن ممن يفهمون هذه الأمور جيدًا ، ولم يعرها كثير اهتمام ..

« كان مما لفت نظره كذلك ، تلك الكهوف فى الحجر الجيرى .. كهوف عتيقة من الواضح أن هناك بقايا عظام مدفونة فيها ..

« كانت الكهوف مريبة بحق .. ثمة عظام مهشمة بطرق غريبة جدًا كأن وحشًا عملاقًا هشمها .. ثمة أدوات من حجر الكوارتز ، وهو حجر لا يوجد فى الكهوف الجيرية ما لم يتم هذا بفعل فاعل ..

« النتيجة المنطقية هى أن هذه الكهوف كانت تحوى بشرًا .. بشرًا من زمن بعيد سحيق ، قبل أن يستقر جدودى فى جبال التبت ، وقبل أن يعرف الصينيون أنهم صينيون .. »

قلت له فى استمتاع :

ـ « لقد صرت بليغًا أيتها الزهرة الزرقاء .. أرى أنك اندمجت فى عالم اليوم بسهولة بالغة .. »

لم يعلق ، ولم يفهم إن كان هذا مديحًا أم دعابة ، وقال :

ـ « كتب (أندرسن) خلاصة ما وجده إلى رجل صناعة سويدى ثرى يُدعى (إيفار كروجر) .. وكان هذا الأخير يملك المال والنفوذ ، فأرسل إلى الصين رجلاً يفهم فى هذه الأمور هو د. (أوتو زدانسكى) ..

« وكان ما وجده (زدانسكى) مثيرًا .. لقد كانت تلك العظام آدمية ؛ وكان بينها تلك الأسنان التى كان العطارون يبيعونها على أنها أسنان تنين .. »

تقلصت أمعائى وقلت :

ـ « إذن كان الصينيون يأكلون أسنان الموتى المطحونة طلبًا للعلاج ، وهم يحسبونها أسنان تنين ؟! »

ـ « لافارق هناك يا (ريفات) .. إن الكالسيوم هو الكالسيوم .. »

ـ « ما زلت أجد الفكرة مقززة .. »

داعب بأنامله بعض الزهور التى لاأعرف اسمها .. إن زهور اليابانيين منمقة مزخرفة ككل ما هو يابانى ، وقال :

ـ « سرعان ما جاء علماء (الأنثروبولوجى) من كل أرجاء الأرض لينقبوا فى (بكين) .. أعنى فى (تشوكوتيان) بالذات ..لم يتركوا حجرًا على حجر .. وأطلقوا على هذه العظام التى وجدوها اسم (إنسان بكين) .. »

« عام ١٩٢٨ عثر الدكتور (س . باى) على قطع أخرى من فك وجمجمة ذلك الكائن ..

واستطاع أن يكوّن خلفية لا بأس بها عن حياة ذلك المخلوق العتيق .. »

سألت (هن ـ تشو ـ كان) وأنا أشعر بالحيرة :

ـ « قصة لابأس بها .. لكن ما دخلها بما يحدث لنا ؟ »

قال وهو يفعم رئتيه بهواء الليل :

ـ « صبرًا .. إنك عجول كطفل أمام قطعة من اللفت المُسكر »

ـ « لفت مُسكر ؟ أنا ؟ »

ـ « سأحكي لك كل شيء .. »

* * *

ـ « فى عام ١٩٣٧ كان الصينيون قد تعلموا الكثير عن التنقيب فى هذه البقعة من بلادهم ، وإن كان معهم خبير أمريكى يُدعى (مارك دونالسون) .. يبدو أنه كان الكل فى الكل فى تلك العمليات ..

« هنا غزت اليابان الصين ، وبدأ خطر اليابانيين يتهدد عمليات التنقيب هذه .. هنا يحدث شيء غريب ..

« تصل فى الظلام فرقاطة أمريكية اسمها (إيليت) ، وفى سرِّية تامة يتم نقل عدد من الصناديق إليها ..

« ماذا كان فى تلك الصناديق ؟ لا أحد يعرف .. الصينيون لم يعرفوا إلا أنها حفريات مهمة يجب الهروب بها إلى أمريكا ، لأنها لا يجب أن تقع فى يد اليابانيين ..

« وبعد خمسة أيام لختفى البروفسور (دونالسون) تمامًا .. الوحيد الذى كان يعرف الحقيقة كلها .. أين ذهب ؟ متى ذهب ؟ لا أحد يعرف .. »

قلت له وقد بدأت أهتم بالأمر :

ـ « لحظة .. معنى هذا أن تلك الصناديق لدى الولايات المتحدة .. ؟ »

ـ « لا .. لقد كان حظ الأمريكيين عاثرًا ، ونشبت الحرب مع اليابان بعد يومين من وضع الصناديق عليها .. أسرهم اليابانيون فى وسط المحيط الهادى واستولوا على الصناديق ، ومن يومها لم يرها ولم يسمع بها أحد .. وقد توفى أكثر هؤلاء الأمريكيين بالزحار الأميبى والملاريا فى معتقلات اليابانيين بالفلبين .. لكن (ثورنوايلد) قائد الفرقاطة ظلّ حيًّا ، وحكى القصة لبعض الصحفيين منذ عام .. كما ثرثر بها فى بدايات الستينات »

ـ « وصممت الحكومة الصينية على .. »

شاعت ابتسامة فى تقاطيع وجهه القاسى ، وقال :

ـ « نعم .. إن هذا التراث ملك للشعب الصينى ولابد من استرداده بأى ثمن .. فى تقدير خبرائهم الأنثروبولوجيين أن هذه البقايا لا يمكن تثمينها ..

إنها أثمن مما لو كانت من الذهب والبلاتين بمراحل .. والصين مصرّة على استرداد هذا الكنز .. ولسوف تفعل .. »

وصلنا لنهاية الممشى ، فاستدرنا عائدين وقلت :

ـ « ماذا عن الدبلوماسية ؟ »

ـ « اليابانيون ينكرون أى وجود لتلك الصناديق ، ويؤكدون أن الفرقاطة كانت خالية عند أسرها .. »

ـ « ولهذا أرسلك الصينيون إلى هنا ؟ »

ـ « بالضبط .. مهمتى كانت هى البحث عن بداية خيط يقودنى إلى تلك الصناديق .. ولم أكن وحدى .. كان هناك عميل يابانى هو (تاكيجى ـ سان) ومعه شبكته التى يمولها الصينيون .. »

وبدأ يعدّ على أنامله :

ـ « أولاً كانت لدينا معلومات الأمريكى (ثورنوايلد) .. ثانيًا كان عندنا القائد اليابانى

واسمه (ميتسو جوياما) .. ثالثًا كان عندنا عالم أمريكى مختف اسمه (دونالسون) .. ثلاثة خيوط يمكن البدء بها .. وبالطبع بحث (تاكيجى) ورجاله عن الثانى .. لا أثر له .. والثالث لا أثر له ..

« يبدو ـ وهذا هو الاحتمال الأرجح ـ أن (ميتسو جوياما) قرر الاحتفاظ بالصناديق لنفسه ، ولم يبلغ عنها .. أو أبلغ عن بعضها .. لقد قابل عملاؤنا جنودًا يابانيين قاموا بنقل بعض الصناديق فى سيارة مغطاة إلى معبد من معابد (الشنتو) خارج (طوكيو) ، لكنهم لا يذكرون شيئًا عن أين أخفوها .. الأمر بعد كل شىء يتحدث عن أمور وقعت منذ ثلاثين سنة .. »

ـ « وهذا هو المعبد الذى ذهبت أنت لزيارته .. »

ـ « نعم .. وتغلبوا علىّ .. »

ـ « تغلبوا عليك أنت ؟ كيف ؟ هل استعانوا بالجيش ؟ »

- « لاتكن طفلاً يا (ريفت) .. حتى (التافاراى) يمكن التغلب عليهم بسهولة .. خاصة حين تهوى شبكة صيد من السقف فوقك ، وحين يغرس أحدهم حقنة منومة فى ظهرك وأنت تحاول التملص .. لقد كان هؤلاء القوم ينتظروننى .. »

- « لكنك استطعت الهرب .. هذا واضح .. »

هزّ رأسه فى ثقة وغمغم :

- « إنهم حمقى .. حين تتغلب على كاهن (نافاراى) وتقيده ، فلا تستعمل الحبال وتترك خمسة رجال فقط لحراسته .. »

بدأت خيوط القصة تتضح لى ..

ثمة - بالتأكيد - عصابة يابانية ما ترغب فى سبق الصينيين إلى تلك البقايا ، وهى تعرف كل شىء عن مهمة (هن - تشو - كان) وعن (تاكيجى) .. ثم عرفتَ كل شىء عنى حين زرت (تاكيجى) ..

سألته آخر سؤال عندى :

- « وكيف وجدتنى لحظة الحصار الذى كاد ينهى أمرى ؟ »

قطب جبينه والتمعت فى عينيه تلك النظرة القديمة :

- « كنت متجهًا للفندق حين شعرت بأنك قريب .. عرفت يقينًا أنك قريب .. لقد تقاربت روحانا لفترة لابأس بها ، ومازال بوسعى أن أشمّ رائحة روحك على بعد أميال .. »

- « تعبير شاعرى .. لكنه أقرب إلى الحديث عن رائحة الجوارب لا الأرواح .. إن الأرواح لارائحة لها يابنى .. »

- « إن لها رائحة لكنها لا تُشمّ بالأنوف ، ولكن تُشمّ بأرواح دانية منها .. لقد عرفت أنك قريب ، وبحثت كثيرًا حتى وجدتك مع ذلك اليابانى تشقان الزحام .. عرفت ماسيحدث .. وعرفت كيف أمنعه .. »

كنا قد وصلنا من جديد لنهاية الممشى فى الحديقة ، وبدا لى أننا سنقضى الليل جيئة وذهابًا هناك ، فعرضت على الفتى أن نجلس فى أى مقهى .. إن هؤلاء المطاردين لن يجدوا وقتًا لزرع أجهزة تنصت فى كل مقاهى (طوكيو) على كل حال ..

اخترنا مقهى على الجانب الآخر من الشارع ، وطلبت بعض الشاى الأخضر المرّ كالعادة .. وكذا فعل (هن - تشو - كان) .. الكلّ من حولنا يشرب الساكى الساخن ، لكنى طبعًا لا أقرب الخمور وكذا الفتى ..

تذكرت سؤالاً مهمًا آخر ، فقلت :

- « ما الذى كان (تاكيجى) سيعطيه لى فى موعدنا ؟ »

- « لا أدرى .. إن من قتله أخذ الشىء بالتأكيد .. »

- « ولماذا حاولوا قتلى ؟ ما داموا يعرفون أننى لم آخذ شيئًا .. »

- « ربما هم لا يعرفون مدى ما تعرفه .. ولأسباب كهذه دسوا جهاز تنصت فى حجرتك .. لقد حاولوا معرفة حجم معلوماتك ، ثم أزمعوا التخلص منك على سبيل الأخذ بالأحوط .. »

قضمت بعض البسكويت الجاف .. كانت له نكهة كريهة (سمكية) بشكل ما ، وعرفت أنه بالتأكيد بسكويت سمك .. كل شىء فى اليابان يدخل فيه السمك ربما حتى العصير نفسه .. وضعت القطعة فى طبقها مشمئزًا وسألت :

- « (هن - تشو) .. ما زلت لا أفهم القيمة الحقيقية لرجل (بكين) هذا .. إنه شخص ما عاش فى الماضى ومات .. فما أهميته إلى هذا الحدّ ؟ »

* * *

قال الفتى :

ـ « لست عالمًا أنثروبولوجيًا ؛ لكن قيمة رجل (بكين) تأتى أولاً من كون كل بقاياه قد اختفت وسط نيران الحرب الأخيرة .. لقد رسمه كثيرون وصوّره كثيرون ، لكن البقايا الحقيقية قد تلاشت .. هذا لغز آخر من ألغاز الكون مثل (أطلنطس) و(ليموريا) وشهاب (تونجوسكا) ..

« هذه نقطة ..

« النقطة الثانية هى أنه الدليل الوحيد على وجود حياة بشرية قرب (بكين) منذ نصف مليون سنة ..

« إن مخلفاته الموجودة ، وأدواته ، وبقايا الحيوانات التى كان يأكلها ؛ كلها أدلة لا تقدر بثمن بالنسبة للعلماء .. العلماء الذين يعتقد عدد منهم أن موضوع (إنسان بكين) مجرد أكذوبة علمية محبوكة .. »

« النقطة الثانية هي أنه الدليل الوحيد على وجود حياة بشرية قرب (بكين) منذ نصف مليون سنة » ..

وابتلع ريقه وأردف بعد تفكير :

« ثمة لغز معين يحيط بهذه الصناديق .. لا أدرى ما هو .. لكن القائد الأمريكى حكى عن أشياء رهيبة .. أشياء لا أصدق حرفًا منها .. لأنى لو صدقت لحزمت حقائبى وعدت إلى (التبت) حالاً ! » ..

* * *

٦ - ليلة هادئة جدًا ..

لم يكن له اسم ..

إنه يعرف نفسه والآخرون يعرفونه .. إنه هو .. فما جدوى الأسماء إذن ؟

كان الجو باردًا فى تلك الليلة بالذات ، والجليد ينهمر بالخارج صانعًا طبقة فوق طبقة من الثلج الأبيض الناعم ..

لا عجب .. فنحن فى العصر الذى سيطلقون عليه يومًا اسم عصر الجليد .. لكنه ليس عصر الجليد بالضبط .. بل هى إحدى فترات الدفء التى تفصل عصور الجليد عن بعضها .. فترة ذوبان الثلوج ، وفيضان الأنهار ، واخضرار السهول ..

الطقس ـ برغم هـذا ـ مازال لايطاق بالنسبة للبشر ..

دخل الكهف حيث كـان الآخـرون يتدثـرون بالفراء ، ويجلسون متلاصقين فى ركن المكـان .. كانوا يرتجفون ، وخاصة تلك الكائنات الصغيرة العارية التى تشرب ولا تأكل اللحم .. ألقى بالصيد على الأرض ونظر حوله ..

يجب إشعال النار ..

فقط النار ستزيل هذا الجليد القاتل الذى يجمّد أعصابهم ..

بحث عن قطعتين من الحجر الأملس الخاص الذى وجده فى النهر ، وجلب ثلاث قطع من الخشب .. كوّمها فوق بعضها ، ثم راح يضرب الحجرين ببعضهما منتظرًا الشرارة المقدسة التى ستبدأ النار ..

وجوههم دانية منه .. ترمقه فى توحش وشغف ..

بعضهم يصدر من حلقه أصوات الرضا ..

أخيرًا توهجت النار ، وبدأ الخشب يلتهب .. الدخان يتصاعد .. الدفء يملأ المكان ..

ثمة كائن صغير يحاول الإمساك بالزهرة الحمراء ، لكنه يضربه بقوة على وجهه .. هذه الزهرة تقتل .. لقد رآها تفعل ذلك كثيرًا ..

ينظر حوله بحثًا عن الذئب الذى قتله اليوم ..

إن لحمه ليس شهيًا ، لكن الصيد قد صار نادرًا هذه الأيام ، وما باليد حيلة .. لو اختار لفضل أيلاً أو غزالاً ..

أعطوه جثة الذئب ، فأمسك بقطعة الحجر الصوان الحادة .. كان قد حصل عليها من النهر ، فهو تعلم من زمن طويل أن أحجار هذه الكهوف

الجيرية لاتصلح للقتال ، ولا تصلح للتمزيق ..

لقد راح يشذبها بعناية باستعمال حجر آخر ، حتى صارت لها حافة حادّة نافعة ..

بهذه السكين البدائية شقّ أحشاء الذئب وسلخه .. ثم بدأ يمزق أجزاءه بعناية ..

حاول أحدهم أن يسرق قطعة ، لكنه وجه له ضربة عاتية فى بطنه .. وصاح منذرًا .. واستدار ليجد واحدًا آخر قد دفن وجهه فى لحم الذئب ، وراح يحاول انتزاع قطعة بأسنانه ، فهوى فوق رأسه بقبضته ..

إنه الأقوى .. إنه الأعتى .. وهو من يأكل أولا ..

كان راغبًا فى وضع اللحم على النار .. لقد ذاق منذ فترة لحم ذلك الدبّ الذى ضربته الصاعقة ، وكان شهيًا برغم أنه كان خاليًا من الدماء ..

كان راغبًا فى إعادة الكرّة ، لكن الآخرين ماكانوا ليتركوا اللحم على النار حتى ينضج .. لابد من التهام الذئب حالاً ..

أمسك بالفراء الدامى وقذفه لواحدة .. إنه يصلح كى تلف فيه كائنها الصغير العارى الذى يرتجف ..

ثم إنه أمسك بكبد الذئب وقضم منه قضمة كبيرة ، ليعلن عن شجاعته وقوته للجميع .. ها هو ذا يستمدها من كبد الذئب التى تضم شراسته كلها ..

ولنفسه مزّق قطعة كبيرة من اللحم وبدأ ينهش فيها ، وترك الباقين يصطرعون على الجثة .. يضربون بعضهم ويخمشون الوجوه ..

وبعد ثوان كان كل واحد قد حمل غنيمته إلى موضع فى الكهف ، وراح يلتهمها بسرعة ، وعيناه

تدوران حوله كالمجنون كى لا يباغته أحد من الخلف ويفوز بها ..

كان الجليد ينهمر بغزارة فى الخارج ، وقد صار مدخل الكهف مغلقًا إلى منتصفه .. هذا خطر .. صحيح أن الدببة لن تجىء هذه الليلة ـ وزيارة الدببة ليست بالتأكيد تجربة محببة ـ لكنهم يغامرون بأن يصحوا ليجدوا أنهم مسجونون تمامًا .. هذا خطر كالدببة تمامًا أو أسوأ ..

حمل قطعة كبيرة من الصوان ، وراح ـ ومعه آخرون ـ يحاولون أن يوسعوا الفتحة قليلاً ، وأن يصنعوا مدخلاً للباب ..

سيكون عليهم أن يكرروا هذه طيلة العاصفة ، وحتى تنتهى .. عندها يمكنهم فتح مدخل الكهف بالكامل ..

جلس وجلسوا حول النار يرتجفون ..

إن فراء الدببة لم يعد كافيًا ليجلب الدفء إلى أوصالهم ..

وبعد قليل لعب الدفء القليل وامتلاء المعدة دورًا لا بأس به ، وبدأت العضلات تسترخى ، والجفون تثقل .. وبدأ عدد منهم يفقد قدرته على البقاء جالسًا ..

* * *

بعد ساعة ـ فى عرفنا ـ صحا على الهول ذاته ..

صحا على صوت التمزيق والطحن ، وسمع صراخهن ، وسمع عويل الكائنات الصغيرة وهى تموت ..

فى البدء حسبه دبًا .. فقط الدببة تقدر على هذا ..

لكن لا .. لم يكن هذا دبًا ..

ليته كان ..

وهب الجميع يلوحون بأسلحتهم المصنوعة من حجر الصوان .. بعضها أقرب إلى الخناجر ، وبعضها ربطت بالقش المجدول إلى غصون الأشجار على شكل رماح .. وصوّبوها نحو الهول القادم ..

لم يتساءل أحدهم من أين وكيف دخل ؟ إن شيئًا كهذا لقادر بالتأكيد على الدخول حينما يريد أينما يريد ..

صاح من الخطر ، ومن الرعب ، ومن التوحش الذى ثار فى دمه .. لا شىء يمنع الذئب من الوثب على الدبّ مهما كان فارق القوة .. إن للغريزة أحكامها ودوافعها .. إنه نداء الدماء الذى لا يُردّ ولا يُرفض ..

كشّر عن أسنانه الغليظة التى سيجدها (أوتو زدانسكى) يومًا بعد نصف مليون سنة ؛ وأصدر صيحة وحشية ، وانقض على الخطر ..

طبعًا كان هذا آخر شىء فعله فى حياته ..

وواصل الرجال الهجوم وهم يعوون كالذئاب ..

تطايرت بعض الرقاب والأذرع .. وانشطر أحدهم إلى نصفين ، لكنهم واصلوا الهجوم .. وثمة فك سيجده (دافيدسن بلاك) عام ١٩٢٧ ..

هنا بدأت الطبيعة تلعب لعبتها ، وبدورها شاركت فى المعركة ..

* * *

إن الكهف لم يخلق لتحمّل كل هذا الارتطام والصراخ والكرّ والفرّ ..

وكانوا يعرفون أن صرخة عالية قليلاً قمينة بأن تسقط قطعة حجر من السقف .. لهذا كانوا يتجنبون الصراخ غالبًا ..

لكن الأمر قد اختلف الآن ، وبدأ الكهف العجوز يعلن عن سخطه ، وراحت الجدران ترتج ..

الجدران التى أنهكتها أطنان الجليد التى تراكمت فوقها ..

وبدأت الأحجار تتهاوى .. تتهاوى ببطء فى البداية .. ثم بجموح .. بجرأة .. وصرخ الأحياء وهم يتلقون الجلاميد فوق رءوسهم ..

والهول ذاته اختفى وسط سحابة من الانهيارات ، واختلط الغبار الجيرى بالثلج الدقيق بدخان النار الهامدة .. واختلط صوت الانهيار بالصراخ بتهشيم العظام .. واختلطت رائحة الدماء برائحة الرماد برائحة الغبار ..

ملحمة من الأصوات والروائح والفظائع ..

وفى النهاية هدأ كل شىء ..

ساد صمت ثقيل بليغ ..

* * *

بعد أعوام سيذوب الجليد تمامًا ، وتفيض الأنهار لتملأ الكهف بطبقات (الغرين) .. طبقة بعد طبقة تملأ كل ما بقى فيه من تجاويف ..

ستجد الأنهار طرقًا أخرى ، وتخضر الصحارى ، وتتصحر الغابات ..

ولسوف يختلف هذا الموضع كثيرًا جدًا .. جدًا ..

لكن رجلاً واحدًا سيجده ..

هذا الرجل أمريكى يُدعى (دونالسون) ..

* * *

٧ ـ لم أعد معهم ..

نصحنى (هن ـ تشو ـ كان) وهو يفتح باب سيارة الأجرة :

ـ « لا أرى من الحكمة أن تعود إلى الفندق .. سيعرفون كيف يظفرون بك .. »

قلت وأنا أركب بجواره :

ـ « إن هناك تذكرة طائرة محجوزة لى ظهر غد .. سأبحث عن فندق آخر أقضى فيه هذه الساعات ، ولكن حقائبى .. »

ـ « لهذا سآتى معك إلى الفندق ، ولسوف ننقلها معًا .. »

شعرت بامتنان لهذا .. هذه هى فائدة (النافاراى) حقًا : بوسعك فى أية لحظة أن تسترد حقائبك من فندق يراقبه القتلة ..

وفى الطريق بينما أضواء (طوكيو) الخلابة تعمينى كعادتها ؛ سألته :

ـ « قلت إن هناك شيئًا مخيفًا يتعلق بالصناديق .. ولم تفصح .. ما نوع هذا الشىء ؟ »

كانت أضواء الطريق تنعكس على وجهه الصلب الحازم .. ظل صامتًا برهة ثم قال فى حذر :

ـ « لا شىء خارقًا للعادة .. أصوات .. قطرات من سائل .. إلخ .. الهراء المعتاد فى هذه الأمور .. لكن ما يثير قلقى بحق هو نداء أجدادى .. »

ـ « أجدادك ينادون ؟ »

ـ « نعم .. الكاهن الأكبر الـ (ساكا ـ سورانا) يزورنى بكثرة هذه الأيام فى منامى .. وهو يكرر بلا توقف : ابتعد أيها (الزهرة الزرقاء) .. ابتعد .. إن الخطر داهم نراه جليًا ، كما نرى القط يتربص بين الأعشاب للسنونو .. ابتعد .. أو خذ

الحذر وقاوم .. فإن الخطر إن لم يقتلك يجعلك مقدسًا .. وعندها تكون (نافاراى) كما ينبغى أن يكون .. »

ـ « هكذا فقط ؟ بلا تفاصيل ؟ »

عض شفته السفلى وقال :

ـ « هذه هى التفاصيل ذاتها وما بقى هو هباء كقشور الأرز .. إن الكاهن الأعظم قلما يتصل بى .. ومعنى هذا أن الخطر من طراز جديد لم أعهده من قبل .. »

ـ « وما هى خطتك ؟ »

ـ « سأعود إلى المعبد ، وأجد من يتكلم .. فهؤلاء القوم يعرفون خيرًا منى ، ويسبقوننى ببضع خطوات .. »

ووصلنا إلى الفندق ، فصعدت إلى حجرتى معه ، وبدأت أجمع حقائبى التى كنت قد حزمتها فى

وقت مبكر من هذه الليلة ، وحرصنا طبعًا على ألا نتبادل كلمة واحدة طيلة الوقت ..

لا أحد يزرع جهاز تنصت واحدًا أبدًا .. ولربما وضعوا الجهاز الذى وجدته فى موضع سهل عمدًا .. من يدرى ؟

* * *

قرع (هن ـ تشو ـ كان) الباب ثلاثًا ، فسمعنا من يقول شيئًا باليابانية ..

انفتح الباب فرأيت فتاة يابانية ، لكنها من الجيل الجديد المتأمرك إياه ..

بشرة بيضاء .. عينان غير ضيقتين .. شعر أشقر (أم هو مصبوغ ؟) ..

بدا الذهول عليها حين رأتنا ، وتبادلت كلمات صينية مهمة مع الفتى ، ثم دعتنا إلى الدخول ..

كانت شقة غربية الطابع مُضاءة جيدًا ، وكان ضوء النهار قد بدأ يغمر المكان لأن أحداث الليل استغرقت الليل كله ..

وفى ركن المكان كانت هناك غرفة يابانية الطابع تركتها الفتاة هنا على سبيل الرمز .. جدران من الورق المقوى .. حصيرة على الأرض من التى يسمونها (تاتامى) .. لحاف مطوى واضح أنها كانت نائمة عليه منذ ساعة ..

قدم (هن ـ تشو ـ كان) أحدنا للآخر :

ـ « د . (إسماعيل) .. (أوشيمو ناجوزى) .. يمكن لكليكما الكلام بحرية لأن ثلاثتنا نعرف كل شىء .. »

ثم أضاف موجهًا الكلام لى (بالعربية) :

ـ « إنها قلقة طبعًا من مجيئنا لدارها فى هذا الوقت .. تقول إننا سنجلب عليها الوبال .. لكنى متأكد من أن أحدًا لا يتبعنا .. »

ـ « لا ألومها كثيرًا .. إننا نشبه مصيبتين .. »

ـ « ستكون هنا فى أمان حتى يجىء موعد طائرتك .. »

ـ « وأنت ؟ »

ـ « سأبقى هنا طبعًا .. إن مهمتى لم تنته .. وعلى كل حال من مصلحة (أوشيمو) ألا تبقى أكثر .. نحن لانعرف ما قاله (تاكيجى) قبل موته .. ولربما كان بعض الأوغاد يستقلون سيارتهم إلى هنا فى هذه اللحظة بالذات ! »

وعادت الفتاة حاملة صحفة عليها بعض الشاى والبسكويت والبيض الفاسد ،فوضعت كل شىء على المنضدة الصغيرة ، وقالت ما معناه (كلوا لقمة سريعة) ، فافترشت الأرض مع الفتى ، وبدأنا نأكل .. لم يكن فى ضميرى شىء من التأنيب لأنى سأرحل .. بل بالأحرى كنت مسرورًا .. إن

(هن ـ تشو ـ كان) يعرف كيف يعنى بنفسه ، وأنا لن أزيد على كونى مصدرًا للمتاعب له .. لن أفعل شيئًا ولا أصلح لشىء إلا لأن أكون رهينة يضغطون بها عليه عند اللزوم .. أضف لهذا أن الصراعات الصينية ـ اليابانية على الحفريات هى من آخر الموضوعات التى تهمنى فى هذا العالم ..

يبدو أن الفتاة تعيش وحدها ، ويبدو أنها كانت ستخرج لعملها حين وجدتنا أمامها .. لهذا بدت عليها الحيرة .. ماذا تعمل بنا ؟

قال لها (هن ـ تشو ـ كان) شيئًا فابتسمت .. نهضت إلى ركن الغرفة وتناولت اللحاف المطوى ففرنته على الأرض ، وأشارت إليه .. فقال الفتى :

ـ « يمكنك أن تنام لو أردت .. سوف نوقظك قبل الموعد بساعة .. »

كان هذا أجمل مما كنت أحلم به .. حقًا كنت

فى غاية الإرهاق وقد تفسخت أوصالى كلها ، وكان رأسى خفيفًا يحلق وحده كالبالون .. لهذا لم أسأل أسئلة كثيرة .. أفرغت سلطانية الشاى فى جوفى ، ثم دسست عويناتى فى جيب البذلة الداخلى ، وعلقتها على مسمار ما هناك ، وأعطيت للوجود ظهرى ..

عمليون جدًا هؤلاء اليابانيون .. جدران الغرف من الورق بحيث يمكن تحريكها بسهولة .. وبلمح البصر تكون عندك غرفتان أو ثلاث غرف .. الأسِرَّة مراتب على الأرض تُطوى بمجرد الاستيقاظ حتى لا تحتل مكانًا ، والوسائد محشوة بالأرز كى لا تكلف مالاً .. و ..

و .. و ..

* * *

وحين صحوت من النوم ، بدت لى الأمور مختلفة نوعًا ..

لم تكن هناك جدران ورقية ..

لم يكن هناك كاهن آخر ، ولا فتاة يابانية ..

لم يكن هناك شىء ..

وأدركت ـ بذكائى المعتاد ـ أن هذا المكان يختلف ..

نهضت مذعورًا لأدرك أننى جالس على مقعد وثير .. جوارى نافذة تركض الأشجار فى هلع ـ واحدة تلو الأخرى ـ من خلالها ..

تلك الاهتزازات المستمرة توحى لى أننى لست فى مكان ثابت على الأرض .. إن هذا قطار .. قطار نظيف مؤثث كأنه استراحة خاصة ..

(بربشت) بعينى أكثر ، فشعرت بالعوينات توضع على أنفى .. الآن أتبين كل شىء بوضوح تام ..

أنا فى عربة قطار .. بالفعل .. وحولى نحو

خمسة من اليابانيين تتباين وجوههم وأحجامهم ، لكن ملامحهم لا توحى بالطيبة المطلقة ..

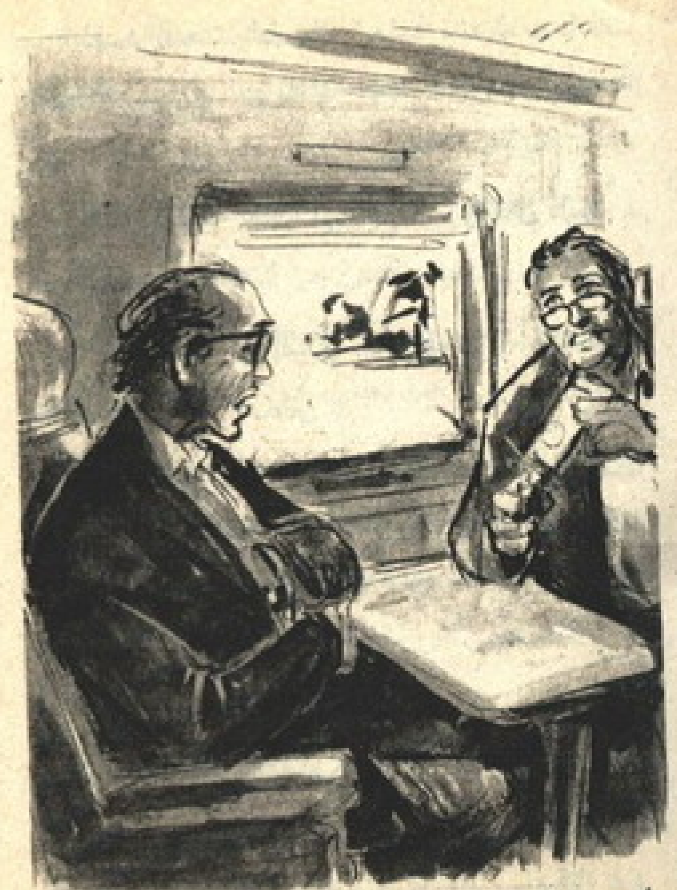
كان منهم الواقف والجالس ، ومن يداعب أظفاره بخنجر صغير .. وكان منهم من يدخن ومن يشرب شيئًا من (ترموس) صغير ..

ونظرت أمامى مباشرة ، فوجدت ذلك الأمريكى .. مستحيل ألا يكون أمريكيًا .. كان شيخًا فى الستين أو السبعين من عمره لكنه بحال معقولة .. بدين يمتلئ وجهه بالتجاعيد .. يرمقنى بعينين رماديتين من فوق إطار عوينات متدلية على قصبة أنفه ..

قال بلهجة جعلتنى أتأكد من أنه أمريكى (فى الغالب من الجنوب أيضًا بسبب مقاطعه الممطوطة) ..

ـ « نأسف على هذه الطريقة يا بروفسور .. »

نأسف ؟ هذا ما كان ينقصنى لأفهم أنهم



وأشعل طرفها بقداحته في هدوء ، وانتظر هنيهة حتى كادت النيران تحرق أنامله ..

اختطفونى من دار تلك الفتاة .. ماذا كان اسمها ؟ كيف فعلوا هذا ومتى ؟ أين ذهب (هن ـ تشو ـ كان) ؟ لماذا لم يحمنى ؟ هل كان نومى ثقيلاً إلى هذا الحدّ الذى ..

رباه ! الطائرة !

وبحثت فى جيوبى .. كنت أرتدى سترتى ويبدو أنهم اضطروا لهذا كى يأخذونى دون إثارة الريبة .. أين التذكرة ؟ هل فات الوقت ؟

قال الأمريكى ملوحًا بقصاصة ملونة فى يده :

ـ « هل تبحث عن هذه ؟ »

وأشعل طرفها بقداحته فى هدوء ، وانتظر هنيهة حتى كادت النيران تحرق أنامله ، ثم ألقى بالشعلة فى مطفأة تبغ على المنضدة أمامه ..

اتسعت عيناى ، ويبدو أنه سمع أفكارى فقال :

- « لقد أقلعت الطائرة منذ ثلاث ساعات يابروفسور .. لم تعد لهذه الورقة قيمة إذن .. »

وأشعل لنفسه لفافة تبغ أنيقة ، وسعل قليلاً ، ثم قال :

- « نسيت أن أقدم لك نفسى .. (مارك دونالسون) .. أمريكى »

كدت أقول له - فى سذاجة - إننى توقعت هذا ، ثم عدلت .. أنا لا أعرف مقدار ما يعرفه على كل حال .. ربما كان من الحكمة أن أبيع ولاأشترى ..

قلت له فى وهن :

- « لماذا لم تقتلونى ؟ »

ابتسم وغمز بعينه اليسرى .. كانت هذه عادة عصبية عنده - كما تبينت بعد قليل - وقال :

- « يخيل إلىّ أنك لا تفهم الموضوع جيدًا .. لسنا قتلة .. أنت هنا ضيفنا المكرّم حتى يتعاون معنا صديقك الصينى .. »

- « صديقى الصينى ؟ وأين هو ؟ »

- « كنا نحسبك الأقدر على الإجابة .. لم نجده ، لذا اضطررنا إلى اصطحابك معنا .. ولهذا اخترع (الكلوروفورم) كما تعلم .. »

آه ! فهمت .. المشهد الخالد فى السينما .. رجلان يجرانى جرًا ، وأنا غائب عن الوعى .. وكلما قابلهما رجل مرتاب أو شرطى قالا شيئًا عن إفراطى فى الشراب أو غيبوبة السكر أو ... أو ...

- « وإلى أين تأخذوننى ؟ »

- « هذا القطار متجه إلى (ناجويا) .. إن خط (توكايدو) هو أهم خطوط السكك الحديدية

فى اليابان ، ويربط (طوكيو) بـ (أوزاكا) و (ناجويا) .. »

كان مخى مبلبلاً بفعل المخدّر .. ضباب كثيف يغمر أفكارى ، لكنى كنت أعرف أن (ناجويا) هى أهم موانئ اليابان .. إن (طوكيو) لا تصلح إلا للسفن الصغيرة .. لكن (ناجويا) .... آه لو يصفو عقلى قليلاً ! (ناجويا) على بعد نحو أربعمائة كيلومتر من (طوكيو) .. أى أن هذا القطار يقطعها فى .... يا للضباب !

* * *

جاء أحد الرجال بالطعام ، ووضعه على المنضدة .. صحفة لكل منا ..

وضع (دونالسون) المنشفة حول عنقه ـ كما يفعل الأطفال ـ وانكبّ يفتك بالطعام فتكًا ،

وكان يستعمل العصوين ببراعة كأنه يابانى ابن يابانى ..

ـ « هل تحبّ (السوشى) ؟ إن من يأكله إنما يبرهن على شجاعة حقيقية .. إن التوابل لا تناسب قرحتى ، لكنى كففت عن تصديق الأطباء منذ بلغت الستين ولم أمت ! »

كان ثرثارًا بحق ، وأدركت أن هذا سيساعدنى على أن ألتزم الصمت ..

سأظل صامتًا أصغى حتى يقرروا أن ينزعوا أول ظفر من أظفارى .. عندها سأتكلم عن كل شىء .. سأحكى عن مرطبان المربى الذى أكلته كله فى بيت خالى ، وعن آلام البواسير ، وعن فشل قصص حبّى كلها .. سيحتاجون إلى تخديرى من جديد كى يسكتونى قليلاً ..

أما الآن .. فلأخرس ..

قال (دونالسون) بفم ملىء بالضفادع وصراصير البحر :

ـ « منذ أيام لا أكثر كنت فى (فيرجينيا) أمارس حياتى الجديدة بشيخ أمريكى متقاعد .. ثم حدثت تلك الضجة .. لقد عثر الصحفيون على قائد الفرقاطة الأمريكية التى أسرها اليابانيون فى أثناء الحرب .. تكلم الرجل كثيرًا .. وعرفت ماكنت أتمنى لو سمعته : إن الصناديق التى قمت بتعبئتها منذ ثلاثين عامًا مازالت سليمة .. لم تغرق .. إنها فى مكان ما فى اليابان .. وهكذا حزمت حقائبى وجئت إلى هنا .. كان لا بد من استردادها .. إنها ذات أهمية لايعرفها أحد سواى .. وهأنذا قد نلت ما أردت .. »

نظرت له فى فهم ، وأفلت منى السؤال :

ـ « هل .. هل وجدت الصناديق ؟ »

ـ « إنها معنا فى هذا القطار ، ولسوف نشحنها من (ناجويا) إلى الولايات بعد ساعات .. ماذا كنت تظن ؟! »

* * *

٨ ـ البحث عن العجوز..

(رفعت) قد اختفى !

حقًا لا توجد آثار مقاومة، ولا يوجد عنف، لكن الكهل فريسة سهلة على كل حال، وما كان ليبدى مقاومة أكثر مما تبديها أفراخ قطاة يختطفها ثعبان فى غياب أمها ..

حقًا قد أخطأت حين تركته نائمًا وحده تحرسه الفتاة، وغادرت المكان .. كان نائمًا فى سلام كطفل، وقد انفتح فمه وراح يغط دون انقطاع .. لذا تبادلت الكلام مع الفتاة همسًا ..

اسمها (أوشيمو) .. يابانية .. تتكلم بعض الصينية، وأنت صينى تتكلم بعض اليابانية، لكن التفاهم بينكما كان كاملًا .. إنها تعمل مع

(تاكيجى) وقد قابلتها مرة أو مرتين، وزرتها مرة من قبل .. إنها جذابة رقيقة، وتجذب أى رجل عادى، لكنك لست رجلًا عاديًا ...

* * *

ـ «لاتروهن يا (أناندا) .. لاتحدثوهن يا (أناندا) .. وإذا تحدثت إليكم واحدة منهن فلاتكترثوا لما تقول يا (أناندا) !» ..

* * *

حقًا كان (جوتاما) يبالغ قليلًا، وكان النسوة أفاع رقطاء .. لكنك تمسكت بلب النصيحة وعرفت كيف تحتفظ ببكارة القلب والجسد، وهما مقدسان لكاهن (النافاراى) .. وبعد لم يكن هذا أول ولا آخر إغراء فى الحياة .. إن فى روحك شيئًا يجذب النساء كما تجذب الزهور النحل فى الأرومة .. وهن يقرأن فى عينيك التحدى الذى

يقول إنك لا تلين بسهولة .. لهذا يصممن .. لهذا يحُمن .. لهذا يضعنك فى كفة الميزان ويختبرنك طيلة الوقت ..

وكالعادة تجتاز الاختبار فى كل مرة ..

تقول لك (أوشيمو) همسًا :

ـ « هل تثق به ؟ أعنى صاحبك الأصلع هذا ؟ »

فتومئ إلى (رفعت) النائم ، وتهزّ رأسك :

ـ « كنفسى .. إنه يملك جسدًا ذابلاً ، لكن قلبه زهرة .. »

تقول لك فى قلق :

ـ « لقد هاتفنى أحدهم ليلة أمس .. ثمة عملية نقل مريبة تمت من معبد (ميكادو) إلى المحطة .. هل تعرف ما تمّ نقله ؟ »

تتسع عيناك اهتمامًا ، وتقول ضاغطًا على حروف كلماتك :

ـ « صناديق .. صناديق مغلقة بشرائط من الألومنيوم ومختومة بالشمع الأحمر .. صناديق يبدو عليها القدم .. »

ـ « أصبت .. »

وتنظر إلى ساعتها الأنيقة وتقول :

ـ « كل الدلائل تشير إلى أنها ستشحن فى قطار الواحدة بعد الظهر إلى (ناجويا) .. هناك من حجز ديوانًا كاملاً وعربة بضائع فى هذا القطار .. هل تعرف ما (ناجويا) ؟ »

ـ « أحسبه ميناء ؟ »

تقول وهى تجوب الغرفة الضيقة كأنها نمر حبيس :

ـ « بل أكبر موانينا .. إن فى (طوكيو) ميناءين هما (شيبورا) و(يوكوهوما) ، لكنهما لايصلحان للسفن الكبيرة .. الأمر يتعلق إذن بعابرة محيطات .. »

الآن تنفك جدائل اللغز ، ويستطيل الحبل فى يدك شيئًا فشيئًا ..

لقد حانت اللحظة المناسبة لكى ينقل هؤلاء الصناديق من معبد (الشنتو) إلى القطار .. والقطار سينقلها إلى الميناء .. بعدها لن يسمع أحد عن الصناديق مرة أخرى ، ولأعوام طويلة ..

تنهض ، وتتأكد من أن معك كل شىء .. ثم تنظر إلى الكهل الراقد الذى لايعى حرفًا مما يحدث .. تقول فى ضيق :

ـ « سأذهب إلى هناك .. ولكن ماذا عن طائرة هذا ؟ »

تهزّ (أوشيمو) شعرها ، وتقول :

ـ « أنت تذهب .. أنا أبقى .. لادور لى هناك ، لكننى سأقدم لصديقك تفسيرًا مُرضيًا حين يصحو .. »

تهزّ رأسك ، وتشعر بشىء من الاطمئنان ..

لا بأس .. من الخير أن يعود (رفعت) إلى وطنه الآن ، ومن الخير أن تبقى الفتاة هنا .. أنت لاترغب فى أن يتدلى ثوبك الطويل على الأرض من خلفك ، فيمسك به أعداؤك .. من الخير ألا تكون لك ذيول فتعضها الذئاب ..

ودون كلمة أخرى غادرت المكان ، عازمًا على الاتجاه إلى محطة السكة الحديدية ..

* * *

كان كل شىء على ما يُرام ..

لقد وضعت المنظار الأسود على أنفك ، وارتديت السترة الأنيقة التى أعطتك إياها الفتاة .. ألصقت الشارب الأسود مغولى الطابع على شفتك السفلى ، وهكذا صار لك وجه آخر .. لم تعد زهرة زرقاء لمن يدقق بعناية ..

ودنوت من المخازن ..

رائحة المازوت تفعم الجو ، وهدير القطارات الغضبى المشتاقة إلى الرحيل .. تدنو من الباب الرئيسى وترمق الحمالين يروحون ويجيئون ، وأكثر من (لودر) صغير يحمل صناديق متباينة الحجم والمظهر ..

يدنو منك أحد العاملين هنا ، وهو يحمل لوح كتابة ، ويبدو كمن وقع على كنز .. يسألك عن شىء ما .. بالتأكيد يسألك عما تريد هنا ..

تنظر حولك فتتبين ألا أحد يرى ما سيحدث ..

وما سيحدث هو ضغطة سريعة على صدغ الرجل .. بالذات على مركز (الكارفا) الثرى الذى يشعّ إلى الجسد كله ..

النتيجة هى أن الرجل يتهاوى كالبالون الذى انتزع الخيط من عنقه ، وتظفر أنت بثيابه المبللة بالعرق .. تستبدلها خلف صندوق عملاق ، ثم تخرج فى ثوب جديد ولوح الكتابة بين يديك ..

والآن تفهم ببطء ـ لكن بثقة ـ ما يحدث هنا ..

الحق أن عدد الرجال شريرى المظهر أكثر من اللازم هنا ، ويمكنك بعين الخيال أن ترى السلاح الذى يدسه كل منهم جوار خصره ..

إنهم يراقبون كل شىء .. يراقبون الصناديق .. يراقبون الحمالين .. يراقبون المدخل .. يراقبون من يراقبهم ..

لقد كانت الإخبارية محقة بالتأكيد ..

هذا المناخ المتوتر يقول إنها مخفقة .. ومن المؤكد أنهم ينقلون الصناديق إلى القطار الآن أو سيفعلون ذلك حالاً ..

ديوان كامل فى القطار ، وعربة بضائع محجوزة لهم بالكامل ، وكل هؤلاء العمال الذين يبدون كأنما هم ملكية خاصة لمدبّر هذه العملية ..

إنهم أقوياء حقًا .. واسعوا النفوذ والثراء ..

وحتى أنت أيها (الزهرة الزرقاء) لك حدودك ، ولك الجبال التى لن تبلغ أعلاها ، والأنهار التى لن تسبر غورها ..

إن إيقاف القطار ، ومنع شحن الصناديق ، لأمران يحتاجان إلى فريق من الرجال .. إلى جيش .. إلى اتصالات ..

سيكون عليك أن تبلغ من تبقى من رجال (تاكيجى) .. عليهم أن ينتظروا فى (ناجويا) ويحاولوا إجهاض نقل الصناديق إلى عابرة المحيطات بأى ثمن ..

وبعدها ؟ عليك أن تخبر الصينيين .. هم وحدهم يعرفون الخطوة التالية .. فقد كانت على عاتقك مهمة معينة ، وقد عجزت عن تحقيقها .. لقد كانوا هم الأقوى والأسرع والأكثر علمًا ..

لكن لم يضع كل شىء بعد ..

* * *

وملهوفًا تعود إلى دار (أوشيمو) كى تخبرها بالتفاصيل ..

لكن (أوشيمو) لم تكن هناك .. ولم يكن (رفعت) ..

فقط وجدت الورقة الموضوعة حيث كان صديقك يغفو ، ورائحة المخدّر التى لا يمكن أن تخطئها .. إن أنف (النافاراى) الحساس لا يفوّت شيئًا ..

الورقة تقول بالإنجليزية :

ـ « إن سلامة صاحبك مسئوليتنا .. لو كنت مهتمًا به يمكنك الاتصال برقم الهاتف (.....) ، ولسوف يتم ترتيب لقاء .. »

هكذا إذن .. هذا نوع من المساومة .. حياة (رفعت) أو أنثاه مقابل ... مقابل ماذا ؟ فى الغالب هم يعرفونك جيدًا ، ويعرفون علاقتك بالحفريات فى (تشوكوتيان) .. إذن هم يريدون رجلاً لهم هناك .. يريدون رجلاً يعرف كيف يهرّب المزيد من العظام الثمينة ..

وأين (رفعت) الآن ؟ وأين (أوشيمو) ؟!

إن ذلك الإحساس فى مؤخرة رأسك ؛ الإحساس

الذى تشعر به الصخرة نحو الغدير ، والذى تشعر به السحابة نحو الأيكة .. هذا الإحساس الغريزى المبهم ؛ الذى علمك المعلم الأعظم أن تحترمه وأن تعترف به .. الإحساس الذى قد يدعونه الحاسة السادسة أو السابعة .. لا يهم ..

هذا الإحساس يقول لك ببساطة إن (رفعت) فى القطار ..

القطار المتجه إلى (ناجويا) الآن ..

هذا يبدو منطقيًا .. إنهم يفرُّون بالصناديق وبرهائنهم فى الآن ذاته ..

كم الساعة الآن ؟ الواحدة والربع ..

لقد فات الأوان .. تحرك القطار نحو الغرب منذ ربع ساعة .. هذه هى اليابان حيث لا تقع معجزات مثل أن يتأخر القطار نصف ساعة ..

ماذا تفعل ؟ كيف ستفعله ؟

* * *

ويقول الأخ (ميانج) :

- « هل تعلمت من البرق سرعته ، ومن النمر شراسته ، ومن الشهب تصميمها أيها (الزهرة الزرقاء) ؟ »

- « تعلمت هذا وأكثر أيها الأخ (ميانج) .. »

- « وهل تعلمت من أحقر الحشرات صبرها ومثابرتها أيها (الزهرة الزرقاء) ؟ »

- « تعلمت هذا وأكثر أيها الأخ (ميانج) .. »

* * *

وقال سائق السيارة اليابانى الذى هو من رجال (تاكيجى) ..

- « نحن نسير بسرعة مائة وستين كيلومترًا يا (هن - تشو) .. هل أنت واثق من أنك قادر على هذا ؟ »

- « أحب أن أعتقد هذا ... »

كان السائق بارعًا ، وقد استطاع بالضبط تحديد النقطة التى يبطئ فيها القطار عند (أوكايو) .. ها هو ذا القطار يلوح من بعيد كخط أحمر براق .. وها هو ذا السائق يحاذيه بالسيارة قدر الإمكان ..

سرعة القطار تبطئ تدريجيًا ، والسيارة محتفظة بسرعتها .. الآن تبدو عربات القطار شبه ثابتة بالنسبة للسيارة .. وهو وضع جيد لكنه لن يدوم طويلاً ..

إنه الجحيم ! كل هذه الاهتزازات والهواء الذى تحول إلى جيش من الأكف الباردة تصفعك بلا انقطاع ..

تفتح باب السيارة وتخرج جذعك .. تتشبث .. الباب يتأرجح بلا انقطاع ، وها هو ذا باب عربة القطار على بعد ثلاثة أمتار .. وإلى جواره ذلك القضيب الرأسى الذى سيسمح لك بالتشبث ..

ـ « الآن ! »

وفى اللحظة ذاتها وثبت فى الهواء ، وكنت تعرف أنك ستفعلها .. إن فى أعماقك قطًا بريًا يقظًا ، لكنه بحاجة إلى من يخرجه إلى السطح من آن لآخر ..

تعلقت كفك بالقضيب ، واستطعت أن تتمسك جيدًا .. ثم تلقى نظرة على السيارة ، فتجدها تتقهقر بعدما عجزت عن مواصلة المسيرة ..

الآن لم يعد الأمر بالصعوبة السابقة ..

أنت فى القطار فعلاً .. سرعة جسدك هى سرعته .. بقى أن تتشبث جيدًا .. لا تسقط الآن وتمت .. حاول أن تجد إفريزًا تضع عليه قدميك .. حاول أن تقاوم تلكم الرجفة الأرضية فى ساقيك ، فهى لا تنتمى إلى عالم (الكارما) ، وبالتأكيد هى لا تليق بك ...



تعلقت كفك بالقضيب ، واستطعت أن تتمسك جيدًا .. ثم تلقى نظرة على السيارة ، فتجدها تتقهقر بعدما عجزت عن مواصلة المسيرة ..

أنت هنا ..

فكر فى هذا ..

تأمله ..

عليك أن تجد ثغرة واحدة تنفذ منها إلى الداخل ..

وبعدها ستكون المواجهة ..

* * *

٩ ـ الحقيقة .. كل الحقيقة ..

وكان (دونالسون) مازال يثرثر ..

كان قد شرب جرعات عديدة من (الساكى) الساخن ، ولو كانت هناك عقدة ما فى لسانه فقد انتهى أمرها منذ دهر ... الآن قد احتقن وجهه وأرنبة أنفه ، وراح يلهث بلا انقطاع ، واحتشدت حبيبات العرق على جبينه ..

إن بقاء هذا الرجل حيًا ساعة أخرى لمعجزة حقيقية ..

قال فى غلّ :

ـ « حقوق للصينيين ؟ هراء ! أنا كنت معهم عام ١٩٣٧ وعلمت هؤلاء القرود الصفر كل شىء .. علمتهم كيف يتخلون التربة ، وكيف

يصنعون قوالب من جص للحفريات ، وكيف يزيلون الشوائب .. كل ما يعرفونه هو بفضلى أنا ، وبعد هذا يتحدثون عن حقوق ؟ »

كان قد دخل فى الطور المعتاد للسكارى ؛ فهم يخوضون معارك وهمية بلا مبرر ، ويتشاجرون ويصرخون ويلوحون بقبضاتهم ، ثم ينهارون ويبكون بلا داع أيضًا ..

ـ « إن رجل (بكين) ملكى وحدى .. لقد وجد سواى بعض الأسنان أو الفكوك .. لكنى وجدت هياكل كاملة .. هل تسمعنى ؟ هياكل كاملة .. كم تساوى هذه الهياكل الآن ؟ وكم يدفع لها أى متحف تاريخ طبيعى فى الولايات أو بريطانيا العظمى ؟ إن للثروة صورًا عديدة ، لكنها قلما تتخذ شكل بقايا عظمية وصخور .. »

وراحت يده ترتجف ..

نظرت لليابانيين الواقفين حولى ، فأدركت أنهم يهابون الرجل حقًا ، ولو لم يكن الأمر كذلك لطلبوا منه الكف عن الشراب والثرثرة ..

ـ « خذ عندك ذلك الأحمق (ميتسوجوياما) » .

ونظر من نافذة القطار يرمق الأشجار الراكضة :

ـ « لقد حسب أنه ظفر بكنز .. وها هو ذا ينقل محتويات سفينته فى الظلام إلى (طوكيو) .. لقد استعمل مضيق .. هه ! مضيق (أولاجا) ليدخل سفنه منه ، وفى سرية تامة حمل رجاله الصناديق الثقيلة إلى أحد معابد (الشنتو) المهجورة خارج المدينة .. كل هذه المعابد لها عالم تحت الأرض شديد الاتساع ، ويسمح بإخفاء مدينة كاملة .. لابد أن الرجل كان يعرف هذا المعبد جيدًا ..

« ويبلغ الرجل تقريره إلى رؤسائه .. كانت الفرقاطة الأمريكية تحمل بعض المؤن والذخائر لكن .. هك ! لاشىء آخر .. »

ومسح فمه ، وضحك لخاطر عنّ له ثم قال :

ـ « وتمرّ سنو الحرب .. لقد عاش (جوياما) واستطاع أن يرى انحدار بلاده فى المحيط الهادى ، وحضر معركة (ميداوى) ، بل وعاش ليرى أول قنبلة ذرية فى التاريخ تهوى على (هيروشيما) .. ودعنى أقل لك إن هذا شعب صلب .. شعب عنيد .. لو سألونى لنصحتهم بإلقاء القنبلة .. لاشىء سوى (اليورانيوم) المنشطر يقدر على تحطيم إرادة هؤلاء القوم .. »

كدت أعترض ثم وجدت أن آرائى فى الأسلحة غير التقليدية لن تروق للرجل .. بل ستفسد عليه كل هذا (التجلى) الثرثار ، ويوقف وابل

المعلومات المنهال على رأسى .. ترى هل سأستفيد بها يومًا ما ؟

أردف (دونالسون) وهو يصبّ لنفسه المزيد :

ـ « ظل (جوياما) صامتًا طيلة الحرب وبعدها .. لم يتنكر ـ أو يظهر أنه تنكر ـ الصناديق إلا عام ١٩٦٣ ..

« يبدو أنه عاد لمعبد (الشنتو) وحده ، ويبدو أنه قرر أن ينزل وحده ليرى ما بالصناديق ..

« حسن .. هك ! لا أحد يعرف بالضبط ماحدث بعدها .. يُقال إنه شوهد يمشى نحو الأشجار شبه مُلتاث وانتحر .. أعنى أنهم وجدوا جثته التى انغرس فيها السيف على طريقة (الهاراكيرى) الشهيرة .. لاتنس أنه رجل عسكرى ، وهؤلاء لاينتحرون بالسم أبدًا .. فقط الغربيون يفجرون رءوسهم بالرصاص

أو يبتلعون علبة كاملة من أقراص المنوم ..

« هنا لابد من سؤال واحد جيّد .. لماذا انتحر ؟ لا أحد يعرف .. لكن انتحاره كان مفيدًا لأنه ساعد على تحديد دائرة اهتمامه ، وكان معبد (الشنتو) الذى مات بقربه ، مع شهادة بعض الجنود هى الخيط الذى بدأنا منه فى بحثنا ..

« جئت أنا واتصلت بمن يهمهم الأمر .. أناس لا يتكلمون كثيرًا ويعملون أى شىء مقابل المال .. كان فى معبد (الشنتو) شيخ كاهن مسن .. إنه من ذلك الطراز الذى يعيش بالقصور الذاتى وعلى سبيل العادة .. أنا أكره إيذاء الشيوخ لأننى .. هك ! صرت منهم .. لكن للضرورة أحكامها .. وكان على الرجل ـ الذى تمزقت أذنه اليمنى ـ أن يقودنا عبر الممرات شديدة التعقيد أسفل المعبد ، ويرينا الصناديق .. »

ومطّ شفته السفلى باحتقار وقال :

ـ « ولكن دعنى أؤكد لك أن مايُقال عن قوة تحمل هؤلاء الكهنة اليابانيين على المستوى الجسدى والروحى خرافة .. لقد ملأ الرجل الدنيا صراخًا وعويلاً بمجرد أن قطع (إيكو) أذنه ، وكأن الأمر يستحق كل هذا الضجيج .. »

وابتسم وأشار إلى أحد اليابانيين الواقفين ـ الأخ (إيكو) طبعًا ـ فهزّ هذا رأسه فى استمتاع ، وأخرج من حزامه خنجرًا لوّح به فى الهواء على سبيل التحية ثم أغمده .. يبدو أنه فهم أن الكلام موجه له ..

سألت (دونالسون) سؤالاً لم أطق كتمانه :

ـ « لحظة .. ما هى الظروف التى أدت إلى تحولك من عالم آثار إلى زعيم عصابة يقطع آذان الرهبان الشيوخ ؟ »

كان سؤالاً خطرًا لكنه مهم .. فأنا لا أترك أبدًا جانبًا مظلمًا من طباع الإنسان يمرّ علىّ دون أن أحاول فهمه ، حتى لو كان هذا آخر عمل أؤديه ..

قال (دونالسون) :

ـ « كل الناس طيبون كريمو النفس حتى يحدث ما يقف عائقًا أمام مصالحهم ! لقد أوشكت حياتى على الانتهاء دون أن أعيشها لحظة .. هك ! لقد عشت كمجذوب لا يكف عن التفكير فى إنسان (بكين) .. فقدت أسرتى وماتت زوجتى وأنا أحلم بإنسان (بكين) .. كل الثراء والمجد اللذين ينتظراننى لو لم يكن (ثورنوايلد) نحسًا و(جوياما) وغدًا .. والآن لم يعد من العمر ما يكفى للاستمتاع .. حين تصير أعوامك

قصيرة مثلى لا يعود لديك وقت للرقة .. إنك .. هك ! ستمزق أحشاء كل من يقف فى طريقك حتى عن طريق الخطأ .. »

سألته من جديد :

ـ « وكيف تدفع لكل هؤلاء البلطجية ؟ »

أخرج سيجارًا غليظًا ، وراح يحاول التصويب عليه بالقداحة خمسين سنة كاملة حتى تمكن من اصطياده ..

نفث سحابة كثيفة من الدخان فى وجهى ، ثم قال :

ـ « إن لى صلاتى هنا .. ثم إننى أسحب من رصيد ما يساويه هذا الكشف يومًا ما .. »

سيجار ولفائف تبغ ! هذا الرجل يمتحن جسده العجوز أكثر من اللازم ، ودعوت الله أن تصيبه نوبة قلبية الآن حالاً وننتهى ..

قال الأمريكى وهو يمتص السيجار :

ـ « المهم .. لقد وجدت الصناديق كما قلت لك .. كان اثنان منها مفتوحين بما فيهما من صخور وقطع عظام .. الصندوق الثالث ـ وهو أهمها ـ كان مغلقًا لكنه ليس الغلق المحكم الذى وضعته عليه يومًا ما من عام ١٩٤١ .

« ثمة من فتح الصندوق ثم أغلقه .. أغلقه فى غير براعة .. ويمكن أن أقول دون خطأ كبير إن هذا (جوياما) ..

« ما الذى وجده (جوياما) بالصندوق ؟ ما الذى جعله يعيد غلقه ثم يفرّ فى ذعر لينتحر بسيف فى معدته ؟ هه ؟ هل يمكنك أن تخبرنى ؟ »

كان قد دنا برأسه منى كثيرًا .. وعيناه شبه مغمضتين فى وجهه المنتفخ .. إنه ممن يتمتعون بموهبة البخر من الفم .. قلت كى يبتعد عنى :

ـ « ربما وجد مرآة ولم يتحمل شكل وجهه ؟! »

« لا .. لا .. لقد أصابه الذعر .. لأنه لم يتحمل ما رآه من (الشىء) .. »

ـ هنا بدأ الفأر يلعب فى عبّى .. (شىء) ؟ هناك (شىء) على ما يبدو .. ومن الواضح أنه ليس جميل المنظر ..

سألته فى قلق :

ـ « أى شىء بالضبط ؟ »

اهتزّ ضحكًا وترجرج بطنه عدة مرات ، ثم قال :

ـ « الشىء الذى وجدت بقاياه أنا الآخر مختلطة بالصخور .. لقد تعاونت مع صينيين على وضعها فى تلك الصندوق وتأكدت من غلقه .. إن هذا الصندوق بالذات لا يضمّ رفات رجل (بكين) .. بل رفات من فتك برجل (بكين) منذ نصف مليون عام ! »

قلت فى صبر :

- « لحظة .. برغم غرابة القصة ، فأنا لا أجد العثور على رفات قديم - ولو كان رفات (يوليوس قيصر) نفسه - مبررًا للانتحار .. »

- « هذا يعنى أن الرجل قد جُنّ .. هك ! إن الموضوع مثير بحق .. ألا ترى هذا معى ؟! »

- « بلى .. بلى .. »

أمسك بالترموس وصبَّ لنفسه بعض الساكى ، ثم قال :

- « كانت خطتى هى أن أبيع بقايا رجل (بكين) أولاً ، ثم أعكف على دراسة بقايا ذلك (الشىء) فى أمريكا .. سآخذ راحتى ، وأكتب تقريرًا علميًا لم ولن يكتب ..

« كنت صغير السن وقتها ، وكان أمامى الزمن كله ، وكان الأمريكان متحمسين لأخذ هذه البقايا

الثمينة ودراستها .. فريق عمل أرأسه طبعًا ..

لقد جاءت الفرقاطة (إيليت) فى سرية تامة لتأخذ الصناديق ، لكنها تأخرت يومين أكثر من اللازم .. يومين كانا كافيين كى تدخل أمريكا الحرب ضد اليابان ، وكى أفقد أنا كل شىء .. كل شىء ! »

* * *

هنا دخل الديوان أحد اليابانيين ، ودنا من (دونالسون) ليقول له باليابانية - وبصوت خفيض بلا داع - شيئًا ما .. بدا بعض الاهتمام على وجه الأمريكى وبدوره أمر الرجل بشىء آخر .. هزَّ اليابانى رأسه وانصرف ..

وعلى الفور جرَّد ثلاثة من الرجال أسلحتهم النارية والبيضاء ، وغادروا المكان لاحقين بالأول .. كانوا باردين برود المحترفين برغم أهمية الخبر الظاهرة ..

نظر لى الأمريكى فرأى علامات عدم الفهم على وجهى .. أمارات الغباء إذا شئنا الدقة ، فقال :

ـ « لا عليك .. هناك متسلل إلى القطار .. لقد رآه أحدهم يثب إليه من سيارة .. وهؤلاء الرجال سيتأكدون من أن مخزن البضائع على ما يُرام ..

« لاخطر هناك .. هك ! لاخطر على الإطلاق .. »

* * *

١٠ ـ أوقفوا الهول الآتى ..

القطار اليابانى الأنيق يواصل رحلته السريعة نحو (ناجويا) ..

وفى الديوان الذى تحول إلى غرفة عمليات (دونالسون) كنت جالسًا .. أريح كوعى على إطار النافذة وأرمق اليابان الراكضة أمامى ..

ترى أين (هن ـ تشو ـ كان) ؟ لماذا ذهب وتركنى ؟ وماذا سيفعل حين يعود فلا يجدنى ؟

كيف له أن يعلم أننى هنا فى هذا القطار ؟ وكيف ينتهى هذا الموقف ؟ هل سينقلوننى معهم إلى الولايات أم يتخلصون منى فى الميناء ؟

بما أعرفه عن (الزهرة الزرقاء) أعتقد أنه سيتصرف ، لكن كيف ؟

ونظرت إلى المنضدة أمامى .. بينى وبين (دونالسون) منضدة صغيرة مثبتة بأرضية العربة .. إن عليها مطفأة تبغ ثقيلة تصلح لأهشم بها رأس الرجل ، فقط لو كنا وحدنا .. لكنه محاط بهؤلاء البلطجية طيلة الوقت ..

كيف يمكن أن ...

* * *

هنا اقتحم الديوان أحد اليابانيين .. كلهم يجىء من خلفية القطار .. أعتقد أن عربة الشحن خلفنا مباشرة أو تفصلنا عنها عربة أخرى .. وواضح أنه قادم من هناك ..

صاح باليابانية فى فزع ، ونظرت إليه فوجدته ملوثًا بالدماء .. كأنما سكب عليه أحدهم دلوًا من الدمَ ، وبنظرة طبية أدق عرفت أن هذا ليس دمه .. هذا دم واحد آخر كان معه !

هبَّ الرجال ، وتأكد اثنان منهما من حشو سلاحيهما ثم لحقا به ، وسرعان ما توارى الجميع .. عربة القطار التى تجمد الدخان فى هوائها قد صار بها أربعة أشخاص لا أكثر .. أنا و (دونالسون) واثنان من رجاله ..

سألته فى حذر :

- « مشاكل .. هه ؟ »

ابتسم فى ثقة ، وقال :

- « لا داعى للآمال الزائفة .. هناك متاعب ما .. يبدو أن المتسلل شديد المراس ، لكن الموضوع منته على كل حال .. »

ومرت ثوان ثقيلة .. دقائق ثقيلة ..

صوت طلقات رصاص .. صراخ مريع .. مريع ..

ثمة طرقات على باب الديوان الذى يقود لباقى القطار ؛ الجزء الأمامى منه ..

فتح أحد الرجلين اليابانيين الباب ، فبرز وجه المحصل الممتقع .. قال شيئًا ما ، فلوّح الرجل بفوهة مسدسه تحت أنفه وقال شيئًا آخر فظًا .. المحصل يتراجع فى ذعر والباب ينغلق من جديد .

قصة واضحة جدًا : « معذرة يا سادة .. هل صوت الطلقات هذا من عندكم ؟ »

« لا تتدخل فيما لا يعنيك يا رجل .. فهذا لن يفيد صحتك .. »

فجأة صرت أفهم اليابانية جيدًا ..

صوت طلقة أخرى ..

صرخة ..

ينفتح باب الديوان الخلفى ، ويدخل أحد البلطجية .. لم يكن ملوثًا بالدماء ، لكنه كان فى حالة عصبية غاية فى السوء ، وكان يرتجف كورقة ..

سأله (دونالسون) وقد بدأ يتوتر :

- « (إيكو) ؟ »

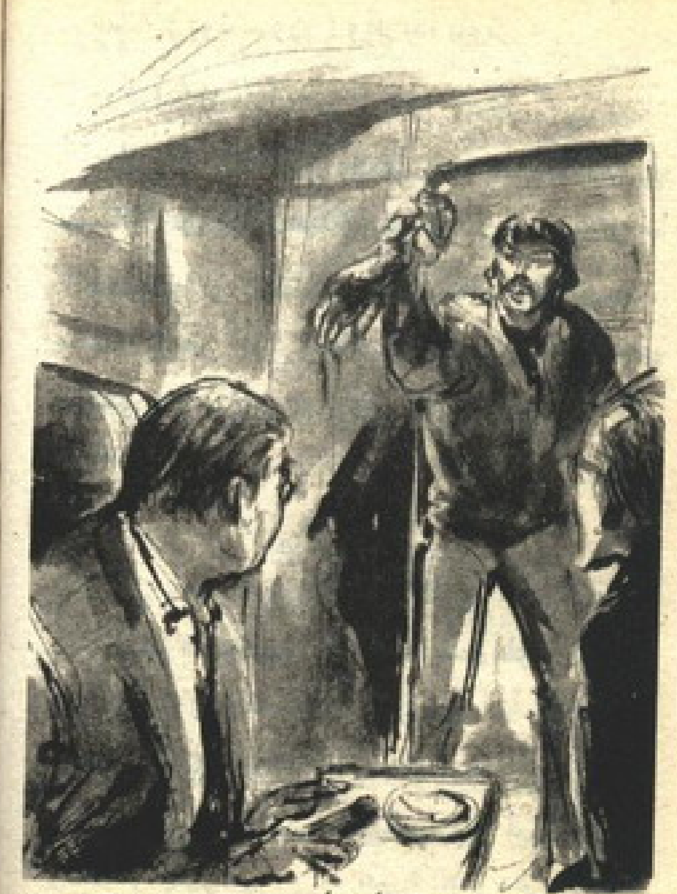
- لم يكن هذا هو (إيكو) .. إنما الأمريكى يتساءل عن أين ذهب (إيكو) .

وكان جواب البلطجى بليغًا جدًا .. رفع يده ، وكانت تقبض على كف آدمية مبتورة .. هذا هو ما بقى من (إيكو) .. وسرعان ما تهاوى فاقد الرشد ..

* * *

نهض (دونالسون) للمرة الأولى منذ رأيته .. كان ضخم الجثة بحق ، ولو لم يكن طويل القامة لبدا كالفيل ببدانته هذه .. إن البدانة مع طول القامة جعلته صالحًا تمامًا ليكون ضلفة باب ..

صاح فى الرجال باليابانية بأوامر لم أتبينها ، واستدار ينظر لى .. ثم هرع نحو باب الديوان



وكان جواب البلطجي بليغًا جدًا .. رفع يده ، وكانت تقبض على كف آدمية مبتورة .. هذا هو ما بقى من (إيكو) ..

الذى يخرجون جميعًا منــه ويعـودون جرحـى أو لا يعودون ..

ونظـرت فوجـدت أن أحـد الرجليــن يلحـق بـ (دونالسون) ، أما الآخـر فوقـف جوارى ممسكًا بمسدس طويل الفوهة ـ كاتم للصوت غالبًا ـ وفى عينيه نظرة تقول : « إن ظننـت أن هذه الفوضى هى فرصتك للفـرار ، فـأنت أحمق بالتأكيد .. »

ومن جديد سمعنا طلقة أخرى ..

وتسـاءلت : هـل يتوقـف القطـار الآن ؟ من البديهى أن يوقف السائق القطار ويتصل بالشرطة ..

لو استطعت أن أضرب هذا البلطجى لفتحت البـاب الآخر وفررت .. ولكن كيف أتمكن من هذا ؟ إنـه يقظ كبعوضـة ، شرس كحيوان (الوولفريـن) .. وفجـأة .. انقطع التيار الكهربى ، لكن الظلام لم يسدْ لأن النوافذ كانت تدخل ضوء النهار ..

هل أنا واهم أم أن سرعة القطار تنخفض فعلاً ؟ انخفاض غير ملحوظ لكنه يحدث بالفعل .. شىء ما يحدث هنا ..

صوت صراخ مريع ثم ..

للمرة الأولى أميز هذا الزئير الرهيب .. ليس هذا زئير أسد ولا دبّ ولا أى وحش سمعت صوته .. ليس زئير العواصف ولا .. إنه صوت وحشى لم يخترع بعد ، كأنه خلط الأصوات الذى يقوم به السينمائيون فى عملية (الميكساج) لابتكار أصوات لاوجود لها كأصوات الديناصورات ..

ولمحت وجه اليابانى يتوتر .. لقد زعزع الصوت هدوءه الداخلى ..

طرقات على الباب الآخر ..

اتجه نحوه والمسدس فى يده ، وتساءل : من ؟

قالها باليابانية طبعًا ، لكن الطارق لم يكن مهذبًا بما يكفى .. لقد انفتح الباب عنوة ، ليصدم الرجل فى وجهه .. تراجع للوراء وتحسس أنفه وترنح مرتين .. وقبل أن يرفع المسدس ثانية طارت ساق (هن ـ تشو ـ كان) إلى وجهه لتضربه فى الموضع ذاته ..

وفى الثانية ذاتها هبطت القدم لتطير المسدس من يده ..

لم تكن هناك فى هذه المرة بروتوكولات من طراز (كيوساراياتا) .. إلخ .. إن الزمن يتطور ، وفى عصر الأسلحة النارية لم يعد الوقت كافيًا لطقوس (النافاراى) الكاملة ، وإلا لأفرغ عدوك مسدسه فى رأسك قبل أن تقول (تشاساراياتا) ..

التطور الثانى المهم هو أن (هن ـ تشو ـ كان) التقط المسدس سريعًا من جوار الرجل الساقط على الأرض ، وأمسكه فى يده .. كاهن (نافاراى) لايحتقر الأسلحة النارية .. غريب هذا !

التطـور الثالث هو أن القطـار بـدأ يبطئ أكثر فأكثر ..

* * *

صحت في مرح ملوحًا بذراعيَ :

ـ « (هن ـ تشـو) ! كان يجـب أن أعـرف أنك الأحمق الوحيد الذي يثب إلى قطار مسرع من سيارة ! »

كان القلق باديًا على ملامحه ، ولم يبد متحليًا بروح الدعابة على الإطلاق ..

جال ببصره في أرجاء الديوان ، ثم قال :

ـ « لا وقت لهذا .. (ريفا ات) .. هل هذا البـاب يُغلق ؟ »

كان يشير إلى الباب الثاني الذي يقود إلى مؤخرة القطار ، والذي خرج منه (دونالسون) ورجاله منذ قليل ..

قلت له في حيرة :

ـ « بالتأكيد .. إن له مزلاجًا و ... »

ـ « أغلقه حالاً ! »

وإزاء ترددي عاد يقول بلهجة أرق :

ـ « لا تخف .. إنني أحمي ظهرك ! »

هرعت إلى الباب فأغلقتـه بإحكام بـالمزلاج ، وعدت إلى (النافاراي) المتوتـر كوتـر القوس .. قلت له :

ـ « ما زلت لا أفهم .. ما الذي ... »

وهنا بدأ القطار يتوقف .. هبط تسـارعه إلـى سرعة الرجل العادي ثم همدت حركتـه تمامًـا .. ونظرت عبر زجاج النـافذة .. كنـا فـي المـروج الخضراء وما من مبان في الأفق ..

ـ « يبدو أن السائق أوقف القطار .. »

قال (هن ـ تشو ـ كان) وهو يلصق وجهه بالزجاج :

ـ « لا .. إنه مستمر نحو (ناجويا) بنفس سرعته .. أنا الذى قام بفصل آخر أربع عربات من القطار ! »

صحت فى دهشة :

ـ « آخر أربع ؟ هل جننت ؟ »

قال وهو يحوم فى الديوان كنمر حبيس :

ـ « لابد من هذا .. لن أغامر بأن ينتقل الخطر إلى باقى القطار .. إن هناك أبرياء كثيرين وأطفالاً ونساء ! »

ـ « خـ .. خطر ؟ أى خطر ؟ »

قال بوجه صلب قدّ من حجر :

ـ « لا أدرى .. لكنه مريع ولا قبل لنا بمواجهته ..

إن علينا أن نفعل أى شىء لمغادرة هذا القطار حالاً ! »

لم أحاول الفهم أكثر .. نظرت إلى الباب الذى جاء هو منه ، وقلت :

ـ سنغادر من هنا .. هذا سهل ؟ »

ـ « ليس سهلاً على الإطلاق .. هناك أحمق قد عزل تلك العربة عن باقى القطار وقد فعلها ببراعة .. هناك باب حديدى لم أستطع فتحه .. يبدو أن المحصل أغلقه حين سمع صوت الطلقات .. »

ـ « هل تعنى أن العربة التى نحن فيها ليست نهاية الجزء المفصول من القطار ؟ »

راح يعدّ على أربعة أصابع :

ـ « ثمة أربع عربات .. عربة الشحن التى تقع فى نهاية القطار .. عربة خالية .. ثم

العربة التى نحن فيها .. ثم عربة خالية أخرى مغلقة بباب حديدى أقوى منى .. »

ـ « والأبواب ؟ »

ـ « إنها أبواب أوتوماتيكية ، ومن الواضح أن انفصالها عن القاطرة قد جعلها موصدة بإحكام .. »

تحركت فى روحى مخاوف (رهبة الأماكن المغلقة) ، وصحت فى ذعر :

ـ « أى أننا لن نخرج من هنا ؟ »

ـ « ثمة فتحة فى عربة الشحن لكننا لن نذهب هناك بأى ثمن .. وثمة النوافذ .. سنهشم النوافذ ونخرج .. »

أمسكت بساعده مُلحًا ، وتساءلت :

ـ « ما الخطر الذى يخيفك إلى هذا الحدّ ؟ »

نظر لى بعينين لا تريان ، وقال :

ـ « لا أدرى .. لكن العربتين المجاورتين لنا مليئتان بالدماء والأطراف المبتورة .. لقد رأيتها تطير وسمعت صراخ الرجال .. إن هذا القطار يحمل كابوسًا .. كابوسًا لم تعرفه الكوابيس من قبل ! »

* * *

١١ ـ الهروب ..

تراجع (هن ـ تشو ـ كان) للوراء خطوة ، ثم فرد ذراعه وضغط الزناد ..

بوم ! كر ااااا ش !

تهشم زجاج النافذة ، لكنه ظلّ بحاجة إلى مزيد من المعالجة بمقبض المسدس .. إنكم تعرفون بلا شك متانة زجاج هذه القطارات اليابانية ..

هنا سمعنا صوت ارتطام مخيف ..

ونظرنا إلى الوراء .. إلى باب الديوان المغلق بالمزلاج ، فوجدناه يرتجّ كأنما شىء يُضرب به بلا انقطاع .. وبقوة غير معقولة ..

* * *

ومن وراء الزجاج الدائرى الذى يفصل عربتنا عن العربة الأخرى رأيت .. رأيت وجه (دونالسون) .. كان يعوى بلا انقطاع .. والدم .. آه !

لن أصف المشهد بدقة ، لأننى لست ممن يستمتعون بهذه الأشياء .. أنا أمقت الرعب المعوى بكل صوره .. رعب الأحشاء الخارجة والأطراف المبتورة ، وقد كان ذلك المشهد يحوى كل ما أكره وأخاف فى الكون ..

وأدركت فى جزع أن شيئاً يمسك به ، ويتسلى بضربه فى الباب ، كما يفعل طفل شقى بدمية أخته المولولة الصارخة ..

صاح (هن ـ تشو ـ كان) بلهجة عسكرية آمرة :

ـ « فلنهرع إلى العربة المجاورة ! إنه لن يترك لنا الوقت الكافى كى .... »

ولم أكن بحاجة إلى مزيد من الشرح ..

هرعت أركض بقدر ما سمحت سرعتى ، وبالطبع انتظر الفتى حتى رآنى أخرج من باب الديوان ، ثم لحق بى ..

وفى الظلام وقفنا .. فى تلك الفجوة ما بين العربتين ، والتى تبطنها أرضية شبيهة بالأوكورديون .. مددت يدى إلى جيبى وبحثت عن (النيتروجلسرين) .. دسست قرصًا تحت لسانى كى لا أموت فى الثانية ذاتها ..

إننى لا أحتمل هذا .. رباه ! أنا لا أحتمل هذا ..

أغلق (هن ـ تشو ـ كان) باب الديوان خلفنا ، ثم هرع إلى العربة وأنا خلفه ..

كانت مظلمة اللهم إلا من نور النهار الداخل من النوافذ .. وكانت خالية تمامًا ، إلا من بعض مقاعد أنيقة صامتة ..

سألت الفتى وأنا أشير إلى نهاية العربة :

ـ « هذه الناحية مغلقة بباب حديدى كما قلت ؟ »

ـ « نعم .. »

حاولت أن أنسق الأمور فى ذهنى ، فلم أستطع أن أجد الترتيب الزمنى الملائم .. قلت له وقد بدت قصته غير مترابطة :

ـ « لحظة .. كيف استطعت فصل العربات ومتى دخلت هذه العربة ؟ »

تنهد فى سأم وقال :

ـ « دخلت من مخزن البضائع ـ ولم يكن هناك شىء مريب ـ إلى العربة الثانية ، ثم خرجت من سقفها .. بعدها واصلت المشى أو الزحف على السقف ، ثم سمعت الصراخ والزئير ففهمت ما يحدث وقررت أن أفصل العربات .. كان الباب الحديدى مغلقًا لهذا خرجت من هذه الفتحة .. »

وأشار إلى السقف وأردف :

ـ « وقمت بفصل العربات ، ثم تسلقت ثانية لأعود إلى العربة من جديد ، وأقرع بابك .. »

قلت له وأنا أنظر إلى فتحة السقف :

ـ « لكنها ضيقة جدًا .. مستحيل أن تسمح لنا بـ ... »

ـ « تسمح لى أنا لكنها لا تناسبك حتمًا .. »

قلت له وقد بدأت أفهم :

ـ « حين كنت أنت فى مخزن البضائع .. ألم تقم بفتح أحد الصناديق ؟ »

هزّ رأسه ، وبلل شفته السفلى بلسانه :

ـ « بلى .. كان علىّ أن أعرف .. لم أفتح الصندوق تمامًا لكنى كشفته بما يكفى .. وكان ما بداخله رهيبًا .. »

ـ « إذن أنت من أعاد لهذا الشىء حريته .. »

ـ « أظن هذا .. »

ودون كلمة أخرى أطلق الرصاص على إحدى النوافذ ، وراح يهشم زجاجها بالمقبض ..

كان صوت الزئير يتعالى من العربة المجاورة ، وأدركت أن الخطر صار دانيًا بحق ..

قلت له وأنا أتحرق شوقًا للهرب :

ـ « أنت أولاً .. »

ـ « بالعكس .. لابد من واحد يحمى ظهرك .. أنت أولاً »

ـ « لابد من واحد يتلقانى على الأرض .. إن الارتفاع شاهق ولسوف أهشم عنقى .. لقد فعلتها مرة حين تعطل القطار على مشارف (بنها) و .... »

- « أنت أولاً ! »

وهكذا وجدت نفسى أحشر كتفى فى إطار النافذة .. ثم وجدت أن الأسهل أن أفعلها بالعكس .. تشبثت بكفى الفتى وأدليت ساقىّ خارج النافذة .. وهوب ! وجدت نفسى ملقى على الأرض جوار القطار ، وكل عضلة فى جسدى تؤلمنى ، وكل عظمة مهشمة ..

وتنحيت جانبًا بينما (هن - تشو - كان) يخرج من الإطار بالطريقة الصحيحة المثلى ، وكما يفعلون فى السينما ...

قلت له فى رضا وأنا أجمع عظامى وأنهض :

« قد نجونا .. هذه النافذة لن تسمح له بالخروج .. »

- « أنت واهم .. » - قالها وهو ينفض الغبار عن ثيابه - « إنه يستطيع عمل أى شىء .. »

ووقفنا نرمق العربات الأربع الهامدة ..

نرمق العربات التى يجول فيها خطر ظل غافيًا نصف مليون سنة ، ثم أنعشه عسكرى يابانى اسمه (جوياما) .. وبعدها أعادته للحياة الكاملة حماقة كاهن من (التبت) اسمه (هن - تشو - كان) ..

من الواضح أنه لم يمت قط .. لقد آذاه غياب (الأكسجين) كل هذه الأعوام ، ودخل فى سبات عميق ، ولم يفق منه إلا حين وصل إليه الهواء ..

لابد أن (جوياما) رآه يتحرك .. لابد أنه أدرك الهول الذى تسبب فيه .. لهذا فقد صوابه .. أغلق الصندوق كيفما اتفق وانتحر كى لا تطارده الكوابيس بقية حياته ..

لكن السؤال المهم هو : هل كان الشىء كله داخل الصندوق ؟ إذن هو مسخ صغير الحجم حقًا ..

ولم أفهم حتى رأيته هناك ..

خلف النافذة حيث كنا نقف ..

* * *

١٢ ـ المحرقة ..

كان أول ما رأيته يشبه ممصًا كبيرًا ..

ثم بدأت أتبين قدمًا هلامية خضراء اللون ، تتحسس إطار النافذة فى جشع .. قطرات من سائل أخضر شنيع تنساب ببطء على جانب القطار ..

كانت صورتنا تنعكس على المادة الجيلاتينية اللامعة ، وهنا فهمت ما هناك .. إن الصورة ذاتها تترجرج .. تتشوه ببطء .. للحظة خيل إلىّ أن وجهينا فى الانعكاس يصرخان هولاً ثم يتفتتان ..

الذعر يتملكنى ، والرغبة فى الفرار بأى ثمن ..

لا سبيل لذلك .. إنه سيجدنا حيثما كنا ، ولسوف يفعل ما يشاء بنا .. لأنه لا شىء يقف أمام الشىء ..

الهلع يتملكنى .. ثم يعمّ جسدى استرخاء غير عادى .. استسلام تام لمصيرى ، وما يشعر به الفأر حين يحاصره القط فى ركن الكرار ..

الحق أن لهذا الانعكاس تأثيرًا منومًا واضحًا ..

ونظرت إلى (هن ـ تشو ـ كان) فوجدته يرتجف ، وشفتاه ترددان كلمات لا أفهمها ، لكنها بالتأكيد من صلوات (النافاراى) القديمة ..

صحت فيه وقد بدأت أستردّ توازنى :

ـ « لا تضعف يا (هن ـ تشو) ! إنه ينوّمنا .. هذا المسخ يملك قوى نفسية واضحة ! »

بدأ يستعيد قواه .. تراجع بضع خطوات للوراء ، وتراجعت معه ..

ونظرنا للشىء فى نافذة القطار ..

* * *

كان بالفعل أقرب إلى أخطبوط هلامى لا حدود لمعالمه .. كان يذوب ويتجمد بسرعة لا تصدق ..

دائمًا هناك انعكاسنا .. مئات الانعكاسات تترقرق على جسده اللزج وكل منها يثير الرعب فى نفسينا .. الرعب والغثيان ..

يسهل أن أقتل نفسى الآن .. هكذا أفهم ما شعر به (جوياما) اليابانى حين فتح الصندوق ووجد هذا الشىء يترقرق أمامه ..

أخرج (هن ـ تشو ـ كان) مسدسه، وثبت ذراعه جيدًا ثم أطلق ثلاث طلقات على الجسم فى النافذة ..

بالطبع لم يحدث شىء كمن يطلق الرصاص على موج البحر ..

لكن أجزاء انفصلت من هذا الشىء المقزز .. أجزاء تذكرك بالأوحال التى التصقت بما تبقى

من زجاج النافذة، وسرعان ما بدأت هذه الأجزاء تكتسب ممصات وأقدامًا بدورها، وراحت تحاول الالتحام بالكتلة الأم ..

قلت لكم إننى فهمت كيف استطاع (دونالسون) أن يضع هذا الشىء فى صندوق واحد .. إن أى جزء منه ـ ولو فى حجم قبضة اليد ـ يكفى لبدء الكابوس من جديد ..

والآن يدنو قلب الشىء أكثر من النافذة .. كان عبارة عن هلام ذاب فيه كل الدم الذى سفكه وراحت أعضاء بشرية تسبح فيه كما تسبح عضيات الخلية فى (السيتوبلازم) ..

لقد كان (دونالسون) سعيد الحظ عام ١٩٤١، لأنه وجد المخلوق مختلطًا بالحجر الجيرى ولم يتحرك .. لكن (دونالسون) رأى ما يكفى كى يرتاب وكى يضع الصخور كلها فى صندوق مغلق بإحكام ..

لم يكن (جوياما) سعيد الحظ مثله ، وكذا لم يكن (دونالسون) حين دخل مخزن البضائع جاهلاً ما عليه أن يتوقعه .. إن العوينات المهشمة السابحة وسط الهلام تؤكد لى أنه كان تعس الحظ ..

وكل الساكى الذى شربه .. ترى هل يسكر هذا الشىء ؟

وصاح (هن ـ تشو ـ كان) وهو يتراجع متحفزًا كالنمر :

ـ « هلم يا (رفعت) ! فلنبتعد ! »

قلت دون أن أبدّل من وقفتى .

ـ « هذا لن يكون ! »

* * *

وقلت له مفسرًا ونظراته المندهشة تمزقنى :

ـ « هذا الشىء يصعب تدميره .. ولو خرج من هنا لاستحال تدميره .. إن كل طلقة تعطينا المزيد منه ، وعما قريب سيكون مستحيلاً أن نجد كل أجزائه .. فكر فى هذا .. إنه مازال داخل القطار يبحث عنًا .. وهى فرصة نادرة لأننا نعرف جيدًا أنه ما من جزء منه خارجه .. إن الوباء كله هنا ، ولو أضعنا الوقت فى الهرب فلن نجده حين نعود .. »

صمت ولم يعلق .. لقد وجد كلامى مقنعًا ، وهو يأمل فى المزيد من التفسيرات ..

قلت له وأنا أتحاشى عينيه :

ـ « سأتجه إلى مخزن البضائع بحثًا عن شىء يصلح .. أما أنت فعليك أن تبعد تفكيره عن مغادرة العربة ! »

ـ « هذا سهل ولكن كيف ؟ »

ـ « عليك أن تعود إلى العربة .. عليك أن تعابثه .. لا تقل لى كيف .. أنت كاهن (النافاراى) الذى يجيد تفادى رذاذ المطر ، ويمكنه اصطياد فأر بأنامله .. لكن لا تدعه يلمسك .. أظن هذا مفهومًا .. »

التمعت عيناه بنداء الأجيال .. لم يكن ممن يرفضون التضحية بحياتهم لأى سبب مهما كان ، هو فقط يكره أن يفعل هذا دون داع ..

ولم أتركه يعيد التفكير ، وهرعت ـ على قدر ما استطعت من سرعة ـ إلى مؤخرة القطار ..

ـ « (هن ـ تشو ـ كان) ! »

ـ « ماذا يا (ريفا ا ا ت) ؟ »

ـ « تعال وساعدنى على الوصول إلى باب البضائع ! إنه مرتفع عن الأرض أكثر من اللازم ! »

هرع نحوى ، وحملنى من خصرى كما يحمل الطفل دميته ، وسرعان ما وجدت نفسى أتمسك بإطار الباب ..

قال لى قبل أن أغيب بالداخل :

ـ « (ريفا ا ا ت) .. ماذا لو كانت بعض أجزائه تنتظر بالداخل ؟ »

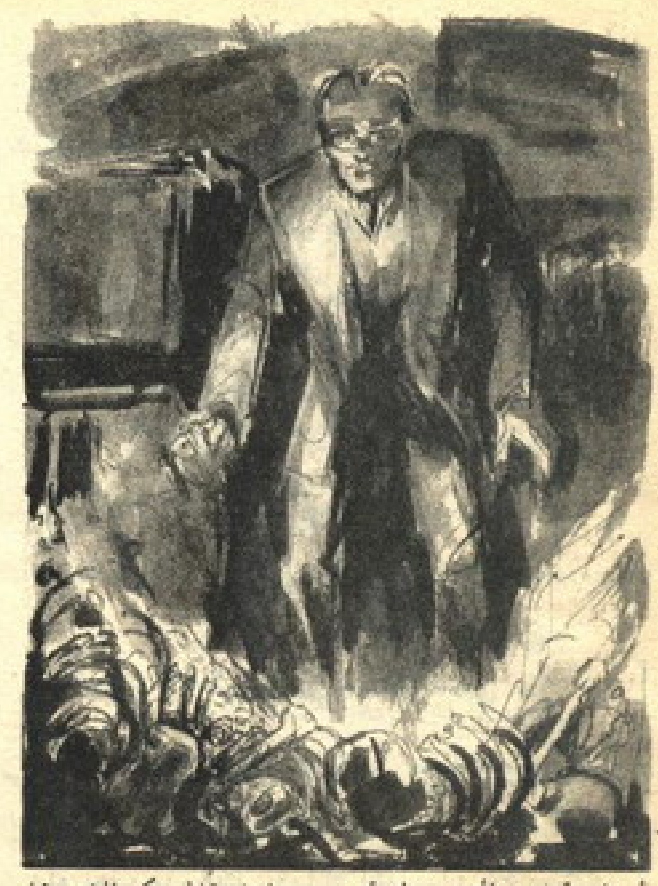
ـ « عندها سأعرف ذلك متأخرًا ! »

وغبت عن عينيه فى الظلام ..

* * *

أشعلت قداحتى لأتبين موطئ قدمى ..

رباه ! حقًا لم يكن المشهد مما يناسب خيال المراهقات .. لقد وقعت مذبحة هنا منذ قليل ، ولم أحبّ ما رأيت ، كما لم أهم حبًا بما شممت ..



أشعلت قداحتى لأتبين موطئ قدمى .. رباه ! حقاً لم يكن المشهد مما يناسب خيال المراهقات .. لقد وقعت مذبحة هنا منذ قليل ..

كانت الصناديق مبعثرة .. صناديق تحوى عظام (إنسان بكين) .. فكّى (إنسان بكين) .. أسنان (إنسان بكين) .. ثروة كان سيسيل لها لعاب أى عطار صينى ممن يبيعون سنّ التنين ..

وكانت هناك بقايا رجال (دونالسون) ..

المرتزقة الذين باعوا حياتهم بالمال لكنهم لم يحصلوا عليه .. كل ما نالوه هو وعد مؤجل بالثراء ..

واصلت البحث فى الظلام .. فى ضوء الشعلة المتراقص ..

ثمة صناديق كتب عليها (Explosive) (مفجّر) ، وهذا طبيعى بالنسبة لصناديق كانت تستعمل فى عملية الحفائر .. إزالة كهوف وشق جبال .. لكن ما حظها من السلامة بعد ثلاثين عامًا ؟ وبعد كل الرطوبة التى رأتها فى قبو معبد (الشنتو) ؟

لا أظن أن هذا الجزء قابل لتنفيذه ..

ثم وقعت عيناى على أجمل شىء تمنيت أن أراه .. حاويات كبيرة كتب عليها بالإنجليزية واليابانية (جازولين) ..

كان عددها ثلاثًا ..

هذا ما أريد بالضبط ..

بقليل من الجهد والحظّ الحسن أستطيع أن .....

ثم عدت أتأمل صناديق المفجّرات .. أطفأت قداحتى ، ثم رحت أهشم الخشب المتآكل الذى يغلف أحدها .. تحسست بأناملى وشعرت بتلك الأصابع الباردة الغليظة المتراصة .. اختراع المرحوم (ألفريد نوبل) المبارك ينتظر منذ ثلاثين عامًا ..

وبيد مرتجفة حشوت جيبىّ بالأصابع .. ثم

جررت أول حاوية إلى الباب وركلتها بساقى لتسقط على الأرض ..

* * *

تماسك أيها (الزهرة الزرقاء) .. تماسك !

تذكر الاختبار الذى خضته فى سنوات اكتساب الرجولة ، فى قبو النيران ..

كان ذاك هو الهول ذاته لكنك انتصرت ..

الشىء المقيت ينساب فوق المقاعد ، وثمة ممس طويل يتجه نحوك فتتراجع .. وممس آخر يجىء من الخلف فتثب فوق المقعد إلى الوراء ..

ويمر شيئان مقيتان فوق رأسك ليلتحما ..

أنت رأيت كيف يمسك هذان الممسان بالشخص ويشطرانه إلى نصفين .. رأيت كيف ينتزع الممس الأذرع والأرجل ..

الكتلة المخيفة تتشكل من جديد فى شكل فم ذى أنياب .. والأنياب تقطر بالموت الأخضر ، ومن حول الفم تبرز عشرات الممسات كلها تقودك إلى أعمق أعماق الفم ..

ممس يحاول الالتفاف حول قدميك فتثب فى الهواء وتتعلق بعمود معدنى هناك .. تتأرجح وتهبط بعيدًا ..

* * *

« كلنا اجتزناه قبلك .. ليس الأمر مستحيلاً .. »

« لا تدع نيران ذهنك تخبُ ثانية واحدة ..

إن تلك الثانية ستكون الأخيرة .. »

* * *

ومن جديد امتزجت بالشهب والسدم والإلكترونات فى مداراتها السرمدية .. صرت بعوضة تتلافى الأكف الفظة ، وصرت ثعبانًا متوترًا يرقد بين

الأعشاب ، وصرت (نافاراى) كما ينبغى أن يكون (النافاراى) ..

* * *

المادة الخضراء تغمر الجدران .. إذن لاجدران ..

المادة الخضراء تلوث الأرض .. إذن لا أرض ..

المادة الخضراء تتناثر فى الهواء .. إذن لا هواء ..

وأين ذهب (رفعت) ؟ أين ذهب ؟

* * *

ـ « اخرج يا (هن ـ تشو ـ كان) ! »

تسمع الصوت وتنظر إلى النافذة المهشمة التى ابتعد عنها المسخ كما تمنيت ..

ـ « اخرج يا (هن ـ تشو ـ كان) لو كنت حيًا ! »

تتقدم ـ كالسهم ـ نحو النافذة ، وأنت ترجو ألا يسدها سوط آخر فى أية لحظة ..

ـ « لنخرج يا (هن ـ تشو ـ كان) ! فالانفجار وشيك ! »

تكوّر جسدك كما يفعل القط .. وتثب من النافذة إلى الأرض ، وتواصل الدحرجة كالثلوج فوق جبال وطنك ..

ويكون آخر ما تراه هو (رفعت) .. وتنظر للوراء فتجد النيران تشتعل فى بركة من سائل ما تم رشه بعناية حول عربات القطار كلها ..

تنظر للوراء فترى أصابع كالسيجار منتثرة بانتظام تحت العربات ، وفى كل تجويف منها ..

وفى اللحظة التالية يبدأ الانفجار ..

ليس انفجارًا واحدًا بل سلسلة طويلة منه ..

كل شىء ينفجر .. العربات ترتج .. بعضها يشتعل .. لكن قوة الانفجار لم تصل قط إلى حدّ تدمير عربة منها ..

* * *

وفى النهاية وقفت ـ أنا (رفعت) ـ جوار (هن ـ تشو ـ كان) نلهث ونتبادل النظرات .. كنت أعرج على ساقى التى هبطت عليها لكنى سعيد ..

الحمد لله ! ما زال الديناميت قادرًا على الانفجار بعد كل هذه الأعوام ..

كانت النار تتصاعد شامخة ومعها الدخان الأسود الكثيف .. العربات تفحمت وبدأ معدنها يذوب ويتجعد ..

سألت (هن ـ تشو) لاهثًا :

ـ « هل تظنه هلك ؟ »

كان صدره يعلو ويهبط بلا انقطاع ، لكنه استطاع أن يقول :

ـ « هل تجرؤ على الدنو لترى ؟ »

ـ لا .. فى الواقع لا .. »

ـ إذن فلنرحل من هنا قبل قدوم رجال الإطفاء والشرطة .. سيكون موقفنا فى غاية الحرج آنئذ .. »

ودون أن ننظر للوراء ابتعدنا ..

* * *

خاتمة

بعد يومين فارقت اليابان عائدًا إلى مصر ..

أعتقد أن (هن ـ تشو ـ كان) لم ينتظر طويلاً قبل الرحيل إلى الصين ..

لقد غادرت عابرة محيطات ميناء (ناجويا) ، ولم يكن على ظهرها شىء ذو قيمة .. لقد وجدوا جثثًا ممزقة متفحمة فى العربات التى انفصلت عن القطار وهم يرجحون حدوث عمل إرهابى .. لقد اختفت آثار إنسان (بكين) للأبد .. وإن كانت بعض العظام المهشمة المتفحمة التى وجدوها تحمل سمات تشريحية خارقة للعادة .. لكن ما تبقى منها لايكفى لنتائج محددة ..

وقد سألت الكاهن الأخير قبل الرحيل :

ـ « هل تلاشى الشىء حقًا ؟ »

ـ « لا أدرى .. ولو كان الأمر بيدى لدفنت بقاياه فى معزل عن الهواء .. ربما تحت الأرض بأميال .. لكنى

لا أحسبه قادرًا علىْ البقاء حيًا فى تلك المحرقة .. »

- « وأين تلك الفتاة .. (أوشيمو) ؟ »

ابتلع ريقه ونظر بعيدًا ، وقال :

- « كانت فى العربة الملاصقة لك .. لقد تعرّفت جثتها قبل أن آتى لإنقاذك .. »

ساد الصمت هنيهة ، ثم سألته :

- « لقد فقد الصينيون عظام رجلهم للأبد .. »

« عليهم قبول الهزائم كما يقبل النساك الخبز الجاف .. »

- « على كل حال ؛ لقد حققنا نجاحًا لا بأس به ، وإن لم يشعر به أحد .. تخيل فتح هذه الصناديق فى (اليابان) أو فى (أمريكا) .. كانت أطراف أكثر من اللازم ستطير قبل أن يعرف الناس كيف يتخلصون من هذا الكابوس .. »

وصافحته فى حرارة :

- وداعًا يا (هن - تشو - كان) .. كالعادة كنت

أنت الكاهن الأخير الذى حطْم تخيلى لقدرات التحمل البشرى .. »

- « مازلت ثرثارًا يا (ريفاااات) .. إن الكلمات لا تضيف شيئًا إلى صداقتنا .. »

وكانت هذه نهاية لقائنا هذا .. لكن لقاءات أخرى كانت تنتظرنا ، وكنا متفاهمين بحق ، لكنى لا أجسر على القول إننا (فريق) .. هذا الفتى فريق من المحاربين وحده ؛ فمن المغرور الذى يزعم أنه عاونه يومًا ؟

* * *

وحين عدت من (اليابان) كانت بانتظارى قصة مسلية نوعًا ..

قصة يفحّ أبطالها ويزحفون ويلدغون ، ويلتهمون الفئران ..

لكن هذه قصة أخرى .

د . رفعت إسماعيل

القاهرة